القسم الثاني

في قارّة افريقية

الفصل الاول

في جغرافية افريقية واهلها وهوائها

هذه القارة احد اقسام العالم الخمسة تبلغ مساحتها نحو ربع مساحة كل الارض يحدها شمالاً بحر الروم والاوقيانوس الاتلانتيكي وشرقًا برزخ السويس والبحر الاحمر والاوقيانوس الهندي وجنوبًا الاوقيانوس الجنوبي وغربًا الاوقيانوس الاتلانتيكي وكانت قبل فتح برزخ السويس ووصل البحر الاحمر ببحر الروم متصلة بقارة اسيا برًّا واما الآن فقد اصبحت جزيرة مكتنفة بالماء وهذا البرزخ اضحى خليجًا بعد ما كان قد شرع كثيرون في فتحهِ قبل المسيح بست مئة وعشر سنين ولم يتم هذا العمل العظيم حتى شرع فيهِ صاحب الحزم والهمة الخواجا فرديننند دي ليسبس الفرنساوي بنفقة شراكة عمومية وذلك بعناية حضرة خديوي مصر وانتهى فتحهُ سنة ١٨٦٩ بحضور محفل عظيم من الملوك والامراء الاوربيين وهو يعد الآن من اهم واعظم الاعمال البشرية التي جرت

في الدنيا واصبح العالم الغربي متصلاً بالعالم الشرقي على اسهل واقرب طريق بعد تلك المسافة الشاقة والمدى الطويل

ولا يخفى ان في هذه القارة بلادًا كثيرة مجهولة الحال لا تُعرف على وجه الحقيقة وذلك لعدم امكان وصول ارباب الاكتشافات اليها نظرًا لمخاطرها . وقد اجتهد كثيرون من السياح على معرفة اقاليمها واحوال اهاليها والوقوف على اراضيها المجهولة فقصدوها من بلادٍ بعيدة وتوغلوا في بطون اراضيها فمنهم من مات مريضًا ومنهم من مات قتيلاً ولذلك يُعتبر اغلب اهالي هذه القارة اقل تمدنًا من سكان سائر القارات

ولكن سنة ١٨٦٦ ارسلت الحكومة الانكليزية الدكتور لفنستون السائح الافريقي الشهير لاجل اكتشاف باطن افريقية الى الجنوب من خط الاستواء ولاجل الوقوف على التجارة بالعبيد . ومن ذلك الوقت لم يظهر خبر عن السائح المذكور الى ان ذهب رجل اميركاني في طلبه اسمهُ ستانلي سنة ١٨٧٢ وبعد سفر طويل وجدهُ مريضًا في اوجيجي وكان قد فرغ زادهُ ومالهُ فبقي عندهُ مدة من الزمان وسافرا سوية في بحيرة تانكنيكا . ثم رجع ستانلي وبقي لفنستون يجول في تلك الاراضي الواقعة بين خط الاستواء وعشرين درجة من العرض الى الجنوب . وقد ظهر الى الآن من اسفاره ان البلاد التي في تلك النواحي مرتفعة عن البحر ارتفاعًا عظيماً ومشحونة بالبحيرات والانهر التي يستقصى نهر النيل اليها . وقد وجد التجارة بالعبيد هناك على شر حالة وبناء على ذلك ارسلت الحكومة الانكليزية حديثًا السير بارتل فريز الى سلطان زنجبار الذي يتعاطى شعبهُ هذه التجارة الفظيعة وبعد مناظرات طويلة عقدت معهُ عهدًا على ابطالها كما انها سعت في ابطالها في بلاد مصر وغير اماكن من سواحل افريقية حتى يمكن القول ان الاتجار بالعبيد صار على وشك الزوال تمامًا . وقد مات لفنستون بعد ذلك بسنين قليلة وكثر تردد ستانلي وغيرهُ الى باطن افريقية وعرف كثيرًا من امورها بما ستاتي بفوائد جمَّة للدين والدنيا

اما هواء هذه القارة فهو حارٌّ جدًّا نظرًا الى وضعها الطبيعي وهي قليلة الامطار والاشجار والجبال . واما صحاريها ورسومها فكثيرة جدًّا ويعسر المرور فيها وفي بعض الاماكن تهب ريح السموم وهي مضرَّة جدًّا ولا سيما للحيوان والنبات . وفي اواسط افريقية كثير من الحيوانات البرية والوحوش الضارية كالاسد والنمر والفهد والضبع والفيل والكركدن اي وحيد القرن والزرافة . وفي اجامها انواعٌ من القرود والحيات العظيمة منها البواء وهو جنس كثير الضرر يبلغ طولهُ عشرين ذراعًا . وفي صحاريها كثير من النعام وانواع الايل والغزلان . وفي بحيراتها وانهرها التمساح وفرس البحر وفيها ايضًا اجناس عديدة من الطيور المختلفة

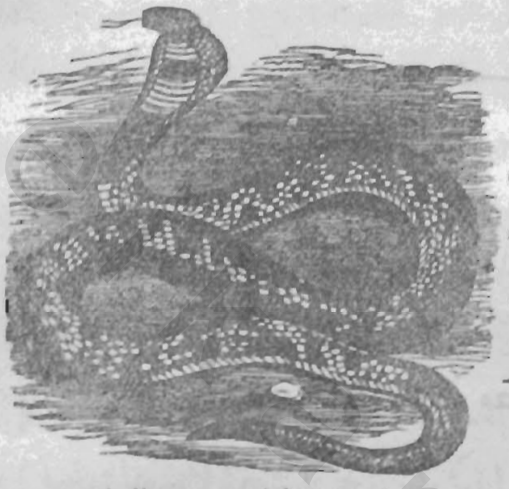

افعى من افاعي مصر السامة

اما عدد سكان هذه القارة فيبلغ تقريبًا مئة مليون نفس منهُ سودان وبربرة واقباط وحبشة وغيرهم . وفي الصحراء الشمالية الكبيرة كثيرة من قبائل العرب الرُحَّل يجولون من مكان الى مكان بجمالهم وخيولهم في طلب الغزو والمرعى كما في بلاد العرب . والديانة العامة هي الاسلامية وبين السودان مذاهب مختلفة من العبادة الاصنامية . ومع ان اللغة العامة هي العربية توجد لغات كثيرة متنوعة في اواسط القارة

والمرجح ان اهل هذه القارة هم من نسل حام بن نوح الذي اتى وسكن ارض مصر بعد بناء برج بابل ومما يؤيد ذلك قرب مصر الى بلاد شنعار ورغبة مصرايم ابنهُ ان يسكنها ويؤسس فيها مملكةً

وتنقسم هذه القارة الى عدة ممالك منها الديار المصرية التي اشتهرت قديمًا

اكثر من سواها من الممالك بالمعارف والفنون كما سياتي الكلام عليها في الفصل الآتي . ثم بلاد المغرب ويقال لها ايضًا بلاد البربر كتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وغيرها ثم بلاد النوبة والحبشة والسودان في اواسط القارة وغيرها من الاقاليم مما لا يسعنا ذكرها في هذا المختصر

الفصل الثاني

في تاريخ مصر

الباب الاول

في جغرافية مصر

يحدُّ هذه البلاد شمالاً البحر المتوسط وشرقًا البحر الاحمر وخليج السويس وجنوبًا بلاد النوبة وغربًا الصحراء وبلاد برقة وهي على شكل وادٍ يكتنفهُ جبلان شرقي وغربي يتخللها نهر النيل من الجنوب الى الشمال ويصب في البحر المالح بقرب مدينتي دمياط ورشيد وهو نهر عظيم يصلح لركوب السفن يفيض مرةً في كل سنة في مدة معينة تقريبًا بين ١٥ حزيران واواسط ايلول فيبتدي النهر يزيد قليلاً قليلاً في مدة ثلاثة اشهر وفي ٥ اب تفتح الترع وتجري فيها المياه وتمتد الى داخل الاراضي البعيدة وتسقيها . ثم من تشرين الاول يبتدئُ ينقص الى آخر ايار ولولاهُ لكانت ديار مصر في حالة تعيسة لقلة الامطار لانهُ لا يقع بها مطر الاَّ في الارياف والفرض البحرية ونادرًا في الجهة الجنوبية وقد وصف

هذا النهر بعض الشعراء فقال

كأنَّ النيل ذو فهمٍ ولبٍّ لما يبدو لخير الناس منهُ
فياتي حين حاجتهم اليهِ ويمضي حين يستغنون عنهُ

وانقسمت مصر قديمًا الى ثلاثة اقسام كبرى . الاول مصر العليا اي الصعيد المتصل ببلاد النوبة التي قسمٌ كبيرٌ منها تابع احكام مصر وكانت قاعدتها مدينة ثيبة . ثم مصر الوسطى التي كانت عاصمتها مدينة منفيس الواقعة بقرب اهرام الجيزة تجاه مدينة القاهرة الحالية وقد اضحت الان خرابًا بعد ان كانت من اشهر مدائن العالم وكرسي الفراعنة في ذلك الزمان . ثم مصر السفلى المعروفة باسم دلتا وسميت دلتا لانها اذ كانت منحصرة بين جدولين من النهر شرقًا وغربًا والبحر شمالاً صارت مثلثًا فاشبهت الحرف الرابع في اللغة اليونانية Δ وسميت باسمهِ . وكانت عاصمة هذا القسم مدينة هليوبوليس انمحت وبنيت على اساسها مدينة الاسكندرية ويتبعهُ ايضًا مدن اخرى شهيرة لا يسعنا تبيانها

اما تربة هذه البلاد فتعدّ من الدرجة الاولى في الخصب ومحاصيلها كثيرة اخصها القطن والحنطة والفول وقصب السكر وهي بالاجمال بلاد غنية جدًّا . اما عدد سكانها فيبلغ نحو ستة ملايين ويسكنها كثير من الاجانب والديانة الغالبة فيها الاسلامية ويليها القبطية . وعلى راي المورخين ان الاقباط هم المنتصرون من ذرية الامة المصرية القديمة واكثرهم يسكنون بلاد الصعيد ونوبية واغلبهم تجار وسماسرة وكتبة . واما لغتهم فقد تلاشت واندثرت في اواسط القرن السابع عشر ولم يبقَ من اثارها الاَّ بعض كتب فقط قلَّ من يفهمها وهم الان يتكلمون باللغة العربية ولهم بطريرك كرسيهُ مدينة جرجاء يدعى البطريرك الاسكندري والاورشليمي . وما زال القبط في هذه الايام على طريقة العهد القديم من جهة الخنان

وفي هذه البلاد تاسست الرهبنة اولاً . فانهُ بسبب الاضطهاد الذي اثارهُ الامبراطور ديسيوس على المسيحيين في القرن الثالث فرَّ كثيرٌ منهم الى البراري

للتخلص من جور الحكام وكان من جملة النازحين رجل يقال له بولس من مدينة ثيبة انفرد بذاته وانعكف على العبادة والاصوام فحسب اول من ظهر فيه روح الرهبنة . ولكنه ظهر في اوائل القرن الرابع رجل آخر يدعى انطونيوس فبنى ديرًا وجمع فيه اناسًا من كانوا يميلون للاعتزال عن العالم ونظم لهم قوانين للسلوك بموجبها ولذلك سمّي بابي الرهبان . ثم ان هذه الطريقة اخذت في الامتداد حتى اتصلت الى فلسطين وسورية بواسطة احد خلفاء انطونيوس وبالتدريج عمّت اكثر عالم النصرانية

الباب الثاني

في تاريخ مصر واهم الحوادث المتعلقة بفراعنتها من سنة ٣٢٠٠ (١) ق م الى خروج الاسرائيليين

اما أخبار مصر القديمة وفراعنتها فمحاطة بظلمة كثيفة وقلّما يوثق بها

(١) انهُ اذ لم يتفق علماء التاريخ حتى الآن من جهة بداءة التاريخ المصري يعسر علينا تعيين تاريخ ما لاعصرهِ الاولى غير اننا نقول انهُ اذا سلمنا بسلسلة تتابع الدول المصرية على ما جاء بهِ مانيثو المورخ المصري وبالكتابات الهيروغليفية المنقوشة على الاثار القديمة التي يظهر انها توافقهُ نضطرّ ان نرجع كثيرًا الى وراء التاريخ الدارج الذي يجعل مجيء المسيح ٣٢٤٨ سنة بعد الطوفان والمدة من الخليقة الى المسيح ٤٠٠٤ سنوات فلا يخفى ان التاريخ الجاري قائم على مجموع انساب مختلفة ذكرت التوراة خاصةً في سفر التكوين مستخرج من اعمار البطاركة ولكنهُ امرٌ معلوم ايضًا ان كل درجات الانساب لم تكن ضرورية الذكر في جدول اليهود كما يتضح من سلسلة نسب المسيح في لوقا ص٣ ع٢٣ حيث يذكر قينان مع انهُ قد اهمل ذكرهُ في التكوين وكما يظهر ايضًا من ترتيب متى عمود نسب المسيح اذ يجعل المدة من ابرهيم اليهِ ثلث مرات ١٤ جيلاً . ثم اذا حسبنا المدة الفاصلة بين الطوفان وولادة ابرهيم من مواليد واعمار البطاركة العشرة

الاختلاف الواقع في عدد اسماء ملوكها وتواريخها . اما اسماء الملوك وعدد سني تسلطهم على رواية مانيثو المورخ المصري فلم تكن جميعها متتابعة بل كان ملوك كثيرون في عصر واحد منهم من كان مستقلاً باقليم ومنهم من كان منفرداً بقاطعة اخرى ودُعوا جميعهم فراعنة جمع فرعون وهي كلمة مصرية اصلها فاراه ومعناها نور الشمس . وقد عد المورخون دولها قبل فتوح الاسلام فكانت نحو ثلاثين دولة فالدولة الاولى كانت قبل المسيح بنحو ٣٢٠٠ سنة واول ملوكها منتر المسمى بالتوراة مصرايم فكان معتبراً بين شعبه ومهيباً عندهم حتى انهم قدموا له العبادة كالله وهو الذي بنى مدينة منفيس وحوّل النيل عن مجراهُ الاصلي واصلح احوال الرعية بتحسين الزراعة ونظم القوانين والاحكام وكانت مدة حكمه نحو ٦٢ سنة . وتملك بعدهُ ابنهُ اثوثيس ويقال انهُ تولّى على مصر العليا او الصعيد مدة ٣٠ سنة في ايام ابيهِ وحكم بعدهُ ٢٧ سنة وهو الذي شرع في تزيين مدينة منفيس وتحسينها وبنى فيها الهياكل والقصور المشيدة وفي ايامهِ كانت الدولة الثانية والثالثة متسلطتين على بعض اطراف المملكة . وذكر مانيثو انهُ في حكم فرعون فيخوس الملك الثاني من الدولة الثانية تعين الثور ابيس الهاً في منفيس وبعد موت فيخوس المذكور تولى بوسيريس الذي بنى مدينة ثيبة في بلاد الصعيد المدعوة الان لُقصر ابي الحجاج وجعلها تحت الملك وكانت من اعظم مدائن مصر في الزمان القديم

اما الدولة الرابعة فكان سرير ملكها في مدينة منفيس . ومن مشاهير

المتسلسلين من سام (تك ١١ : ١٠ الى ٢٦) نجدها حسب النسخة العبرانية لا تتجاوز ٢٥١ سنة حال كون النسختين السامرية والسبعينية تتفقان بجعل تلك المدة ٩٤٢ سنة . فبناء على ذلك لا يمكن الاعتماد على تلك السلاسل النسبية ولا اعتبارها جداول اصلية لتاريخ العالم العام لان النبي موسى لم يقصد فيها ضبط تاريخ عمومي للخليقة ولا ان يحدد زمن الطوفان بالنسبة الى الزمن الذي عاش هو فيهِ بل قصد ذكر ملخص نسب المخلص الموعود بهِ . ولكن مع كل ذلك قد استصوبنا ان نتبع في هذا الكتاب التاريخ الماخوذ عن الجداول الموسوية لتتفق مع من اخذنا عنهم اقوالنا

فراعنتها الملك شوري ومنفاري وسوفيس الاول ثم سوفيس الثاني وهو اخو سوفيس الاول ثم الملك شوفو واخوهُ نوشوفو وهما اللذان بنيا الهرم الاكبر في ارض الجيزة وملكا معًا كما يظهر من كتابة اسميهما المنقوشة على بعض حجارة الهرم المذكور وقد وجد فيهِ مدفنان لهما وهما غرفتان متقاربتان في جوانب ذلك الهرم واما الملك منقاري فقد وجد اسمهُ في الهرم الثالث وتابوتهُ الآن بين الآثار القديمة في مدينة لندن

واما فراعنة الدولة الخامسة فكانوا تسعة ملوك اشهرهم أُسركيف وشافري ونفراكريس اما الملك شافري فهو الذي بنى الهرم الثاني ولكن نُسب الى سوفيس الثاني غلطًا

ومن ملوك الدولة السادسة الملكة نيكتوريس وكانت من اجمل نساء عصرها حسنًا واشهرهنَّ فضلاً وكمالاً قيل كان لها اخ قتلهُ بعض رجال دولتها بغضًا وحسدًا فاحتالت عليهم الى ان جذبتهم الى قصر لها تحت الارض بقرب النيل بداعي وليمة اعدتها لهم فلما انتهوا بالاكل والشرب امرت بان ينساب عليهم ماء النهر فغرقوا جميعًا

وفي ايام الدولة الثانية عشرة صارت مصر مملكة واحدة في دار ملكٍ واحدة وهي مدينة ثيبة التي كانت تخمًا لاحدى الدول واول من استقل بالمملكة وتغلب على باقي ولاياتها اوسيرطاسن الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة والبعض يظنون انهُ سيزوستريس ولكن اليونان يطلقون اسم سيزوستريس على رمسيس الثاني احد ملوك الدولة التاسعة عشرة كما سياتي البيان . والى هذا الملك يُنسب تاسيس مدينة الكرنك في بلاد الصعيد وافتتاح بلاد الحبشة والعبيد . ثم خلفهُ عامونمهي الثالث الذي اقام الابنية العظيمة في اقليم الفيوم ورسم عليها اسمهُ وكانت مدة ملكهِ اربعًا واربعين سنة

اما ملوك الدولة الثالثة عشرة والرابعة عشرة فلا يوجد لها اخبار صريحة حتى ان جميع مولفات المورخين قد خلت من ذكر اخبارها وتفاصيل احوالها .

واما الدولتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة فاصلها من مدينة ثيبة التي كانت تحت حكمها وكان آخر ملوك الدولة السادسة عشرة يدعى طيماوس وفي ايامه كانت اغارة الملوك الرعاة على مملكة مصر وهي الدولة السابعة عشرة العربية المعاصرة للدولة السابعة عشرة المصرية الملكية

ان افتتاح الرعاة بلاد مصر هو حادثة كثيرة الاهمية في التاريخ المصري وقد وقع الاختلاف بين المورخين واهل التحقيق من جهة هولاء القوم فبعضهم يجعلهم من الامة العبرانية وبعضهم يقول انهم من اهل فينيقية ولكن هذه النصوص لا تطابق هيئة اشكالهم المرسومة على الاثار المصرية لانهم كانوا يصوّرون على الاعمدة والصخور كشعبٍ موسومة اجسادهم بالوشم الازرق ومتشحين بجلود غنم فهذه الاشارات تدل على امةٍ عربية لا على شعوب عبرانية او فينيقية ولا سيما ان دولتهم كانت تسمى هيك سوس في اللغة المصرية اي الملوك الرعاة لان لفظة هيك كانت تستعمل عند قدماء المصريين بمعنى الملك ومعنى سوس الرعاة فاذا زيد عليها واوٌ وقيل سوسو كانت بمعنى العرب . وخلاصة الكلام فيهم انهُ في زمن الملك طيماوس احد ملوك الدولة السادسة عشرة جاء الى مصر طوائف مختلفة تحت راية الوليد بن دومغ وهو الذي يسمى عند اليونان سلاطيس فحارب مصر السفلى والوسطى وتغلب عليها بعد هجماتٍ كثيرة وحروب هائلة ولما استقر بالولاية احرق المعابد والهياكل وبنى القلاع والحصون وشحنها بالعساكر ومهمات الحرب خوفاً من هجوم المصريين وغيرهم من الطوائف الاجنبية على البلاد وجعل مدينة منفيس تحت المملكة وانتقل ملك مصر الى الملوك الرعاة ما عدا بلاد الصعيد فانها بقيت مستقلة تحت حكم العائلة الملكية المصرية في مدينة ثيبة التي هي دار الفراعنة . وفي ذلك الوقت كان في الديار المصرية مملكتان وهما مملكة الفراعنة ومملكة الملوك الرعاة المتغلبين في منفيس . وكان المصريون يكرهونهم وينفرون منهم لقساوتهم وكثرة جورهم واحتقارهم الديانة المصرية واستمرت احكام البلاد في ايديهم نحو ٢٦٠ سنة وقال بعضهم ٥١١ سنة ويصعب

تعيين وضبط تاريخ مدقق لتلك الاعصار الاولية لعدم اتفاق المورخين في ذلك ولعل الاول هو الاصح وما زالت البلاد تحت تسلطهم حتى استخلصها منهم فرعون اموسيس بعد وقائع وحروب متعددة

وتولى بعد اموسيس المذكور ابنهُ امنوفيس الاول نحو سنة ١٨٠٠ ق م وهو راس الدولة الثامنة عشرة فاعاد كرسي المملكة في منفيس واستقل باحكام مصر مع مضافاتها ولواحقها . وفي ايامهِ وجد كثيرٌ من صور الخيول منقوشة ومرسومة على الحجارة والصخور والمظنون ان هذه الحيوانات لم يكن لها وجودٌ قبل دخول الرعاة الى مصر ولكن هم الذين ادخلوها لانها لو كانت موجودة قديمًا لكان لا بد من نقشها مع باقي الحيوانات التي كانت الاهالي تعتني برسمها وقد كثر هذا النوع من الحيوان في تلك البلاد حتى صارت التجار تستجلبهُ من الديار المصرية الى الاقطار الشامية في ايام الملك سليمان بن داود . ومما يستحق ان يذكر انهُ وجد في هذه الايام تابوت والدة هذا الملك ومن داخلهِ قلادة وسلسلة من الذهب مع سيف وتاج عليهِ تمثالان من الذهب وهو الآن محفوظ في بيب الاثار القديمة ببولاق وبالجملة قد تحسنت مصر في ايام هذا الملك وسرَّت الناس باحكامهِ . ومن آثار هذا الملك الرواق الشهير الموجود في هيكل الكرنك الذي هو من ابدع الابنية القديمة ولم يزل الى الآن اسمهُ مرسومًا على القناطر القريبة التي بنواحي ثيبة وصورتهُ في قاعة التصاوير الملكية بالصعيد وبجانبهِ ملكة حبشية ومن ذلك يستدل على ان المصريين كانوا يتزوجون بالسودان

ومن ملوك هذه الدولة فرعون طوطميس الثالث ملك سنة ١٧٥١ ق م وكان من عظام ملوك الدولة الثامنة عشرة لانهُ فتح مدنًا كثيرة اكثر من جميع سلفائهِ ومن جملة اثارهِ المسلَّة التي نُقلت الى الاسكندرية والمسلَّة التي هي الآن في القسطنطينية واخرى في رومية مكتوب عليها اسمهُ ولهُ ايضًا آثار اخر عظيمة منها الرواق الملكي الموجود في الكرنك وصورتهُ هنالك ايضًا . وهو الذي بنى

يوسف الى مصر في ايامهِ على ما يُظن وفسَّر لهُ احلامهُ المذكورة في الاسفار الموسوية وتقدم في بابهِ تقدمًا عظيمًا حتى صار صاحب الحلّ والربط

وقد اختلف المورخون من جهة شخص فرعون يوسف من هو من الفراعنة فزعم البعض انهُ كان من الملوك الرعاة الذين تغلبوا على مصر واسمهُ الريان بن الوليد المعروف عند اليونان باسم ابي فاس وقال احد المتاخرين ان هذا الزعم لا يصح نظرًا لتقادم عهد تلك المدة والاصح ان دخول يوسف الى مصر كان بعد انقراض دولة الرعاة . ويؤيد ذلك كلام مانيثو المورخ اذ قال في كلامهِ على مدينة منف وعاش بها يوسف وتسلط على البلاد في زمن اقدر واعظم فراعنة المملكة الجديدة بعد نفي الرعاة وخروجهم من البلاد . ثم من قصة يوسف المذكورة في التوراة نرى ان مصر كانت في ذلك الوقت مملكة مستقلة بذاتها وان استعدادات فرعون واحتياطاتهِ في سني المجاعة يتضح منها ان رياستهُ كانت ممتدة على كل بلاد مصر كما يتضح من كلام يوسف لاخوتهِ بقولهِ لهم ان الله قد جعلني ابًا لفرعون وسيدًا لكل بيتهِ ومسلطًا على كل ارض مصر . والمعلوم من التواريخ ان دولة الرعاة عند ما استظهرت على الديار المصرية لم تتغلب على كل اقطار المملكة بل على اسافلها واريافها فلو فرضنا ان ذلك الملك كان من طائفة الرعاة كما توهمهُ اكثر المورخين لما قال ليوسف اني جعلتك مسلطًا على كل ارض مصر لان احكامهُ لم تكن ممتدة على كل ارض مصر بل كانت محدودة من شطوط بحر الروم الى اطراف بحر السويس ما عدا بلاد الصعيد التي هي اكبر اقسام مصر واعظمها . ومن كلام فرعون ليوسف حيث يقول ان علمت انهُ يوجد بين اخوتك احد يحسن المرعى فاجعلهم رعاةً وروساء على مواشيَّ يستدل على انهُ لم يكن بين عبيد فرعون من يحسن تربية المواشي ولذلك اختار الملك اخوة يوسف ليس فقط لمهارتهم بل ليعلّموا المصريين تلك الصناعة . فلو كان فرعون من ملوك العرب الرعاة لوجد في قومهِ من العرب او العمالقة من هم اخبر وادرى من اخوة يوسف

بسياسة المواشي فيتضح مما تقدم ان فرعون يوسف لم يكن من ملوك العرب اى العمالقة بل كان من العائلة المصرية

ومن ملوك الدولة الثامنة عشرة امنوفيس الثالث الملقب عند اليونان بالممنون وهو من اشرف فراعنة هذه السلسلة ولهُ صيتٌ عظيم في الاقطار المغربية قيل انهُ لم يكن من جنس المصريين بل انهُ اغتصب المملكة وتسلط عليها بمداخلتهِ مع احد الفراعنة بالزيجة ومما يؤيد ذلك ان قبرهُ الذي في مدينة ثيبة منفردٌ عن قبور باقي الفراعنة . وكان قد ادعى لنفسهِ الالوهية وانشأ هيكلاً على ميسرة النيل تجاه ناحية ثيبة وقد تخرب الآن وانهدم ولم يبقَ من اثرهِ الاَّ الصنم الكبير وهو عبارة عن صورة هذا الملك

وكان المصريون يعبدون هذا الصنم ويعتقدون انهُ كل ما اشرقت الشمس يسمع منهُ صوت . فكان الناس يتاثرون من ذلك ولا يعلمون السبب وظنَّ بعض الرومان واليونان ان مصدر هذه الاصوات كان من اثر الندى في الليل وانهُ عند شروق الشمس وارسال اشعتها اليهِ يُسمع منهُ هذا الصوت من اثر الحرارة في الحجر غير ان الامتحان في هذه الايام كشف الحجاب وذلك ان السير كردنر ويلكنسون الانكليزي لما اتى للفرجة على هذا الصنم وجد في جوفهِ حجرًا اذا ضرب بهِ سُمع لهُ طنين وتكتكة . فكان الكاهن يدخلهُ في وقت السحر بحيث لا يراهُ احد من الشعب ويقرع صدر الصنم بذلك الحجر وكان الكهنة يفعلون ذلك لاجل خداع امتهم بهذه الاحتيالات ويجعلونهم يصدقون بالوهية الصنم المذكور وبقيت اكاذيبهم مستترة اكثر من ثلاثة الاف سنة حتى جاء

كاهن مصري

ويلكنسون المذكور وكشف حجابها وخرعبلاتها المستترة

ومن اشهر فراعنة مصر الملك رمسيس الثاني المشهور عند اليونان باسم سيزوستريس وهو الملك الثالث من فراعنة الدولة التاسعة عشرة وكان ملكًا عظيمًا ظافرًا كثير المغازي والغارات قد ملأ مشارق الارض بصيت فتوحاتهِ وارهب مغاربها بهيبة باسهِ وسطواتهِ ولم يكن احد قبلهُ من ملوك مصر عبر البحر الاحمر فجهز عمارة عظيمة نحو اربع مئة سفينة حربية وتغلَّب على سواحل هذا البحر وعلى جزائر بحر الهند . وامتدَّ ملكهُ من نهر الكنك في اسيا الى نهر الدانيوب اي الطونه في اوروبا وكان كلما فتح قطرًا واستولى على مملكة من الممالك شيد فيها هياكل واثارًا تدلُّ على نصراتهِ وفتوحاتهِ وابقى فيها فرقةً من الجنود المصرية ليستوطنوا فيها وينشروا بها ديانتهم وعوائدهم لتكون علامةً ظاهرة لتخليد ذكرهِ على ممر الايام ورسم على تلك الاثار كيفية عبورهِ الى هاتيك البلاد ونقش تاريخ استيلائهِ على ممالك الدول ولم يزل بعضها باقيًا الى الآن

وقد اقام سيزوستريس في مصر هياكل عديدة من اموال الغنائم التي سلبها من الامم حتى لايكاد يوجد في وادي النيل اثر من الابنية القديمة الاَّ وعليها اسمهُ ورسمهُ وشيد ما يلزم من الجسور والقناطر والترع والخلجان لنفعة البلاد ورفع الاراضي المنخفضة التي يفسدها فيضان النيل بحيث لايكون للماء سلطة عليها وبالجملة قد وصلت مصر في ايامهِ الى اقصى درجات الرفعة والمجد وزهت ايضًا بالعلوم والفنون وهو الذي قسم المملكة الى ستٍّ وثلاثين ايالة واقام على كل ايالة نوابًا لاجل جمع الجزية وهو الذي رسم صورة الخارنة على ما قيل وصوَّر فيها صورة المدن التي افتتحها ليبين لاهل مصر عظم ملكهِ واتساعهِ . وكان فيهِ تيهٌ وتعاظم حتى انهُ كان اذا ركب في موكبٍ لزيارة المعابد او المتنزه ياتي ببعض الملوك الذين كان قد اسرهم ويلبسهم ثيابهم الملكية ثم يربطهم كالخيل اربعة اربعة ليجروا المركبة . ولكن بعد رجوعهِ من ذلك

الموكب كان يكرمهم ويحسن اليهم . بئس الكرامة والاحسان بعد تلك المعاملة

مركبة مصرية بعجلتين

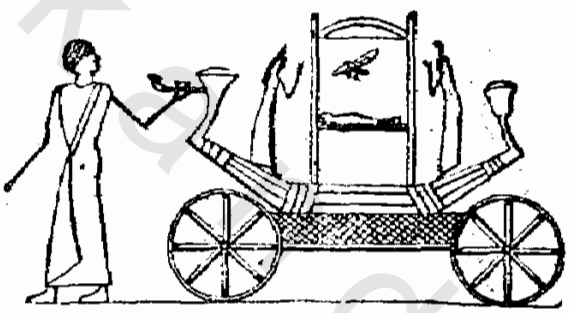

مركبة مصرية باربع عجلات

وذكر المورخون انهُ لما استولت دولة الفرس على مصر كان في رواق الصور الملكية بمدينة ثيبة بالصعيد صورة سيزوستريس فلما راها داريوس ملك الفرس اراد ان يضع صورتهُ في هذا الرواق فوق صورة سيزوستريس المذكور فغضب رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور من قصد الملك داريوس وقال لهُ بكل جسارة لا يجوز لاحد من الملوك ان يعلو على رمسيس الاكبر الاَّ من ساواهُ في المآثر والاعمال العظيمة فلم يغضب داريوس من كلامهِ بل اجابهُ قائلاً انهُ ان عاش عمر سيزوستريس ليجتهدنَّ ويفعل لمصر من المنافع ما فعلهُ هذا الملك العظيم حتى لا يكون دونهُ في الشهرة ورفعة المقام . وعاش سيزوستريس عمرًا طويلاً وكانت مدة حكمهِ على ما رواهُ مانيثو المؤرخ ٦٣

سنة وقال بوسيفوس ٦٦ سنة وكان قد عمي في آخر حياتهِ وقتل نفسهُ بيدهِ والسياح في ايامنا هذه يرون اسمهُ وتاريخ حروبهِ ونصرانهِ مصورة ومنقوشة على حيطان القصور والهياكل والاعمدة في النوبة والكرنك وثيبة

وتولى بعدهُ ابنهُ منفطا الثاني سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ولهذا الملك ابنية ومآثر كثيرة في الديار المصرية وكانت مدة حكمهِ تسع سنين وعلى راي بعض المدققين المتاخرين انهُ في ايام هذا الملك خرج بنو اسرائيل من مصر تحت رياسة موسى سنة ١٤٩١ ق م بعد معجزاتٍ كثيرة . ومما يدل على صحة كون هذا الملك هو نفس فرعون الخروج هو انهُ مات عن ابنة يقال لها طوسير وابنٍ قاصر يعرف بمنفطا الثالث فتولت البنت قبل اخيها لقصورهِ وتزوجت برجلٍ من الامراء يقال لهُ صفطا منفطا ومعناهُ عبد النار وكان زوجها يحكم عنها بالنيابة فجلوس هذه الملكة بعد موت ابيها على كرسي الملكة وزواجها برجلٍ ليس هو من بيت الملك مع كثرة العائلة الملكية من ذرية جدها سيزوستريس الذي كان قد خلف نحو عشرين ولدًا ذكرًا تدل دلالة قوية على وقوع حادثة عظيمة مهولة انقرضت بها ذكورهم وهي غرق فرعون وقومهِ . ومن العجب ان قدماء المصريين يكتمون حادثة غرق فرعون وينكرونها بالكلية خوفًا من الفضيحة والعار في القرون المستقبلة . ولا عجب من كتمان المصريين هذه الحادثة لاننا نجد في هذه الايام المنورة من ينكرها ايضًا اذ ينسبون انفلاق البحر الى حادثة طبيعية وهي المد والجزر الدوريان . وان قال قائل كيف يمكن ان يكون منفطا الثاني هو ذات فرعون الذي غرق في البحر الاحمر حال كون قبرهِ الان بين قبور الملوك الباقية بالصعيد في الجهة المعروفة بباب الملوك فنقول ان ذلك ليس ببرهان قاطع لتأييد الاعتراض لان وجود القبر لا يدل على وجود مقبور فيهِ فكثيرًا ما نرى مشاهد ومدافن في اماكن مختلفة على اسم انبياء واشخاص مشهورة ومدفنهم الحقيقي في غيرها من البلاد فانهُ يجوز ان يكون فرعون هذا قد بنى لنفسهِ مدفنًا في حياتهِ حسب

العادة التي كانت جارية بين ملوك ذلك العصر ولم يدفن فيهِ . وعلى فرض انكار هذه العادة فقد تقدم ان مورخي المصريين لم يذكروا شيئًا من هذه الحادثة بقصد اخفائها في العصور المستقبلة فلا يستعبد ان يكونوا قد بنوا لهُ قبرًا لاثبات دعواهم بهذا الانكار وتحميل من يراهُ على تكذيب هذه الواقعة

الباب الثالث

في ولاية فرعون شيشق سنة ٩٩٠ ق م الى بداية حكم الدولة البطليموسية سنة ٣٢٣ ق م

ومن مشاهير فراعنة مصر الملك شيشق الاول وهو راس الدولة الثانية والعشرين واول ملوكها تملك نحو سنة ٩٩٠ ق م وكان سريرهُ بمدينة بسطة بالشرقية المعروفة الان بتل بسطة الذي هو بقرب الزقازيق وهو الذي هرب اليهِ يوربعام بن ناباط ملك اسرائيل مستغيثًا بهِ فنهض قاصدًا اورشليم بالف ومئتي مركبة وستين الف فارس وحارب رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكان في جيشهِ قوم من السودان والحبشة فافتتح مدن يهوذا ونهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك واخذ اتراس الذهب التي عملها سليمان ثم عاد الى مصر . وتاريخ هذا الفتوح لم يزل مصورًا على حيطان هيكل الكرنك العظيم ومكتوبًا عليهِ يهوذا ملكي اي مملكة يهوذا تحت قبضة يدي مع صور كثيرة من الاسرى الذين اسرهم في حربهِ ومغازيهِ وعلى صدورهم اسم جنسهم وبلادهم . وقد حكم هذا الملك ٢٢ سنة

وخلفهُ ابنهُ اوسرخان الاول وهو المعبر عنهُ في التوراة بالملك زارح الحبشي

حارب مملكة يهوذا بنحو مليون من النفوس وثلاث مئة مركبة حربية فسار ملك يهوذا لملاقاتهِ واصطفت جنود الفريقين في وادي صفد فالقى الله الرعب في قلوب المصريين فهربوا جميعًا والمراد بالحبشة في التوراة هم المصريون ومن معهم من الجنود الاجنبية الحبشية . وكانت مدة حكم هذا الملك خمس عشرة سنة . اما باقي ملوك هذه الدولة فقلما نعلم من انبائهم شيئًا . وقد وجد على بعض الاعمدة في مقبرة ابيس بالقرب من منفيس اسماء ملوكها وكيفية جلوسهم على الكرسي واحد بعد الآخر وهم

شيشق الاول	تكلاث الاول
اوسرخون الاول ابنهُ	اوسرخون الثالث
هرشاسب ابنهُ	شيشق الثالث
اوسرخون الثاني	تكلاث الثاني
شيشق الثاني	

ومن فراعنة مصر الملك سباقون وهو راس الدولة الخامسة والعشرين السودانية الحبشية التي كانت قد استولت على الديار المصرية سنة ٧١٤ ق م. ثم تولى بعدهُ اخوهُ سواخوس وهو المذكور في التوراة باسم سوا الذي استغاث بهِ هوشع ملك اسرائيل على شلمناصر ملك اشور . ثم ملك بعدهُ طهراق وكان ملكًا عظيمًا ظافرًا ذا شوكة وباس . وهو الذي زاد تحسين الهيكل الذي بنواحي جبل البركل في بلاد الحبشة ووسعهُ وزخرفهُ واضاف ايضًا قاعة عظيمة الى هيكل مدينة آبو في ثيبة حيث أخبار غلباتهِ على الاشوريين في ايام سنحاريب عند ما غزا الديار المصرية . وقد وجد في هذه الايام في آثار مدينة آبو تمثال هذا الملك منقوشًا عليهِ انهُ حكم الحبشة ومصر وجميع مدن افريقية وكانت مدة حكمهِ خمسًا وعشرين سنة وبهِ انتهت حكومة دولة الحبشة من بلاد مصر

ومن فراعنة مصر الملك بساماتيكوس الاول الذي يسميهِ هيرودوتوس

ابسامیس وهو راس الدولة السادسة والعشرين كان ابتداء ملكهِ قبل المسيح بست مئة واربع وستين سنة وكانت مملكة مصر قد انقسمت قبل هذا الملك بين اثني عشر قائدًا من عظمائها فطرد القواد المذكورين واستقل بالمملكة وكان رجلاً حاذقًا محمود السيرة وتعتبر مدة ملكهِ مدة مهمة للغاية اذ في زمانهِ انتهى الابهام والالتباس التاريخي واشرقت شمس المعرفة الحقيقية في التاريخ المصري . وفي ايام هذا الملك شاع استعمال الكتابة بالاحرف الابجدية وانتسى بين الناس علم الكتابة المصورة وصارت مصر مملكة واحدة منتظمة فصيرها مدينة منفيس وفي ايامهِ بلغت بلاد مصر درجة سامية في التمدن والمعارف والغنى لانهُ اعتنى بتحسينها وتنظيمها وجدد معاهدات تجارية بينهُ وبين اليونان واهل صور وسهّل اسباب الاخذ والعطاء حتى صارت مصر مركزًا لتجارة الامم . وكان قد اتخذ من اليونان عسكرًا وجعل منهم قوادًا ورؤساء وقلدهم اسنى المناصب وخالف في ذلك عوائد من تقدمهُ من الفراعنة وبهذه الوسيلة ازدادت جنود مصر غيظًا وحنقًا عليهِ . وقيل انهُ لما حارب فلسطين جعل جنود اليونانيين في الميمنة وترك للمصريين الميسرة التي كانت علامة الذل والاهانة فغضب المصريون من جراء ذلك وحقد اكثرهم عليهِ وارتد منهم جماعة الى مصر . ولهذا الملك اثار كثيرة في الديار المصرية من الابنية المزخرفة والاعمدة الجميلة في ثيبة والكرنك وقد زيد الهياكل باحسن النقوش واجملها وكانت مدة ملكهِ نحو ٥٤ سنة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ نخو سنة ٦١٠ ق م وكان كابيهِ لهُ عناية واهتمام بتحسين احوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة وهو الذي شرع في ايصال نهر النيل بالبحر الاحمر بواسطة ترع طولها ٩٦ ميلاً ولكنهُ بعد ما اهلك مئة وعشرين الف نسمة من قومهِ في هذا العمل تركهُ غير كامل . وكان ملكًا مظفرًا افتتح ممالك كثيرة واستولى على اكثر مدائن اسيا وانتصر على ملك بابل وعند رجوعهِ عزل يهوياحاز بن يوشيا ملك اورشليم وولى مكانهُ اخاهُ الياقيم

وضرب على شعب يهوذا خراجًا يدفعونهُ لهُ في كل عام وهو مئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب واخذ يهوياحاز معهُ الى مصر اسيرًا وفي ايام الياقيم المذكور تولى نبوخذ نصر الاول ملكًا على بابل فجهز الجيوش والعساكر وزحف الى اورشليم وملكها واستردَّ ما كان اكتسبهُ نخو من بلادهِ وانقطع حكم فرعون على اورشليم وخسر كل ما كان افتتحهُ من الممالك والمدن في اسيا وكانت مدة ملكهِ على رواية هيرودوتس ست عشرة سنة وعلى رواية مانيثو ست سنوات والاول اصح واشهر

ثم قام بعدهُ ابنهُ بساماتيكوس الثاني سنة ٥٩٤ ق م ومات في السنة السادسة لملكهِ بعد رجوعهِ من فتوحاتهِ في الحبشة وخلفهُ ابنهُ ابريس المدعو ايضًا فرعون حفرع وهو المذكور في ارميا ٤٤: ٣٠ ومن اعمالهِ انهُ جهز جيشًا عظيمًا لمحاربة اسيا فحاصر صيدا وصور واخضع جميع بلاد فينيقية وفلسطين وفي ايامهِ حدث انقسام في المملكة وفتن وحروب كثيرة وفي اثناء ذلك زحف نبوخذ نصر ملك فارس في جيشٍ عظيم الى مصر ففتحها بعد حصار طويل وهدم هياكلها وابراجها ووقع فرعون حفرع في يدهِ فامر بشنقهِ . ثم رجع نبوخذ نصر الى بلادهِ واستخلف على مصر رجلاً من اعيان المصريين يقال لهُ اماسيس فاقام بامرها اتمّ قيام ثم تمرد اخيرًا على الدولة الفارسية واستقل بالمملكة المصرية واخضع لحكمهِ جزيرة قبرس وكانت مدة ملكهِ ٤٤ سنة . وتولى بعدهُ ابنهُ بساماتيكوس الثالث وفي ايام هذا الملك زحف كمبيز بن كورش ملك فارس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد بالجيوش والعساكر لافتتاح مصر بسبب عصيان اماسيس على المملكة الفارسية فتغلب عليها بعد حروبٍ كثيرة ووقائع مهولة وقبض على بساماتيكوس والزمهُ ان يشرب مقدارًا كثيرًا من دم الثيران ففعل ذلك بهِ كالسم ومات وخضعت لكمبيز بعد ذلك كل بلاد مصر وصارت مقاطعة فارسية وتوالت عليها نواب الفرس كما مرَّ في ترجمة كمبيز عند ذكر ملوك فارس

وسنة ٤١٢ ق م كره المصريون حكم الفرس عليهم ونفروا من عبوديتهم

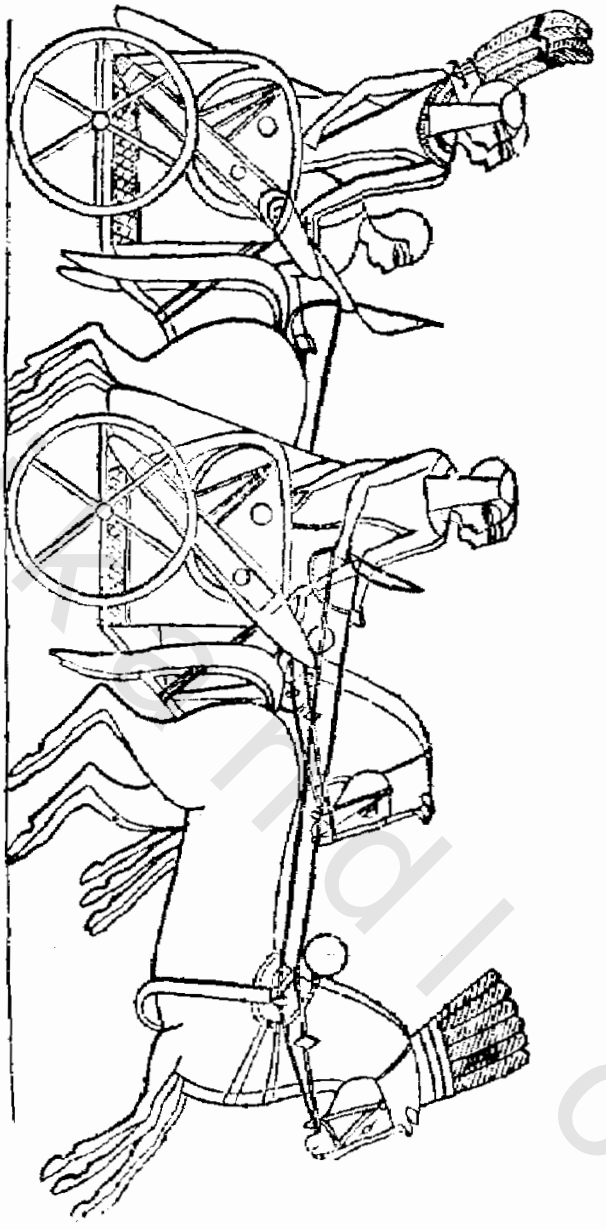

امراء مصريون على مركبة

فعصوهم مرةً اخرى في السنة العاشرة من حكم داريوس نوثوس ملك فارس ونالوا حريتهم وكان الملك ارتزركسيس قد شرع في الاستعدادات اللازمة لاسترداد مصر فمات قبل ان يقيم حربًا . ثم قام بعدهُ ابنهُ داريوس الثالث او دارا اخوش سنة ٣٥٨ ق م وفي السنة العشرين من حكمهِ جهز جيشًا عرمرمًا وسار قاصدًا الديار المصرية وعند وصولهِ اليها جرى بينهُ وبين المصريين

جملة وقائع فتغلب عليهم وسقطت مصر في ايدي الفرس مرةً ثالثة وهكذا

عسكري مصري عسكري اشوري

تمت نبوة حزقيال ٢٩:١٤ حيث يقول ولا يكون بعدُ رئيسٌ من ارض مصر ومن ذلك الوقت الى يومنا هذا بقيت مصر تحت تسلط الغرباء ولم يملك ملكٌ عليها منها

فاستمرَّت مملكة مصر خاضعة للفرس نحو تسع سنين الى ان افتتحها اسكندر ذو القرنين سنة ٣٣٢ ق م وهو الذي بنى مدينة الاسكندرية وسماها باسمهِ وجعلها على نسق المباني المكدونية واذن لكثير من اهالي بلاد اليونان واهالي المشرق ان يستوطنوا بها وفتح ابوابها لجميع الناس واعدها مركزًا جديدًا لتجارة اهل العالم فصارت كذلك الى يومنا هذا . وبعد وفاة اسكندر تولى زمام مصر الدولة البطليموسية كما سياتي بيان حكمهم في محلهِ

الباب الربع

في تمدن المصريين القدماء وصنائعهم وعقائدهم وما يتعلق بهم

يظهر جليًّا من دلائل الاثار والتواريخ المصرية ان المصريين قد تقدموا قديمًا في انواع المعارف والفنون العقلية والفلسفة الكيمية تقدمًا عجيبًا وبرعوا في علم الهيئة والنجوم والهندسة براعة غريبة ولاسيما فن الطب فانهم كانوا قد اتقنوهُ اتقانًا جيدًا وكان الطبيب عندهم لايتفرغ الاَّ لمعالجة مرض واحد من الامراض فلهذا السبب نجحوا فيهِ وبرعوا . واثارهم كابنيتهم العظيمة المدهشة دلائل ظاهرة على تقدمهم وبراعتهم في تلك العصور المظلمة وعلى الخصوص الاهرام التي تذهل عيون الناظر بارتفاعها ولا يزال الى الان ثلاثة من اعظمها في ارض الجيزة وهي بعيدة امبالاً قليلة عن القاهرة واعظم هذه الاهرام مربع القاعدة وطول كلٍ من جوانب قاعدتهِ ٧٥٠ قدمًا وارتفاعهُ نحو خمس مئة قدم وهذه الاهرام مبنية بحجارة صلبة جدًّا يبلغ طول كل حجر منها ما بين عشر اذرع الى عشرين ذراعًا وعرضهُ ما بين ذراعين الى ثلاث اذرع وقد سلكوا في بنائها طريقًا عجيبًا من حسن الصنعة والضبط والاتقان فلا تجد بين الحجر والحجر مدخل ابرة ولاخلال شعرة . واما خِرَب مدينة ثيبة وغيرها من المدائن المجاورة لها في بلاد الصعيد فبيان عظمها وعجائب ما فيها من الهياكل والاعمدة والتماثيل والمعابد المزخرفة يفوق التصديق حتى ان السائح اذا شاهدها وتامل في اشكالها وبنائها يلهيهِ التامل في الماضي عن ملاحظة الحاضر وتلهيهِ قوة

اهلها عن التفكر في فواحشهم . وكانت لهم اليد الطولى في صياغة الذهب والفضة والاواني المختلفة فكان صياغهم يصيغون خواتم نفيسة وقلائد ثمينة يبيعون ويشترون بها

وهم الذين اخترعوا آلة الحراثة وصبغوا الزجاج بالوان متنوعة كلون الزمرد والعقيق وغيرها . واما تجارتهم فانحصرت في غلالهم ومحصولاتهم وكان لهم اتصال مع الهند بواسطة بلاد العرب فكانوا يرسلون الى تلك النواحي ما راج عندهم من الحبوب والمواشي والفخار والزجاج ويستبدلون بها منهم العطر والبهار والياقوت وغير ذلك

وكان لهم احكام غريبة وعوائد عجيبة تدونت في تواريخهم ودفاتر شرائعهم منها انهُ اذا احتاج انسان الى اقتراض مبلغ يجوز لهُ ان يقترض ويرهن في نظير دينهِ جثة والدهِ المدفونة فيكون قبر ابي المديون تحت يد الدائن الى وقت استحقاق المال فاذا لم يفِ المديون دينهُ ومات حرم من دفنهِ في مقابر والديهِ وتحرم اولادهُ ايضًا ما لم يوفوا دين والدهم . ومنها ايضًا انهم كانوا يبغضون الاجانب بغضًا عظيمًا فلا يجالسونهم ولا يتناولون معهم طعامًا . ومنها اذا مات منهم احد من الاشراف تمرغ نساء بيتهِ واقاربهِ وجوههنَّ بالوحل ثم يقرعنَ صدورهنَّ ويطفنَ في المدينة صارخات باكيات وهكذا يفعل الرجال ايضًا وبعد ذلك ياتون بالجسد الى المحنطين وبعد التحنيط يصير القضاء على الميت وهو انهم ياتون بالجثة الى امام كرسيِّ القضاة فان كان الميت من اهل الصلاح والتقوى وجاء من شهد بذلك برز القضاء بدفنهِ مكرمًا وان كان ذميمًا قبيحًا دُفِن على خلاف اللائق ولو كان من اعظم الاشراف ويقال ان كثيرين من الفراعنة لقباحتهم حرموا من واجبات الدفن الاحتفالية في قبورهم التي كانوا يصرفون زمنًا طويلاً في تزيينها داخل الاهرام

واما صناعة التحنيط فكانت باخراج دماغ الجثث من المنخرين واخراج الامعاء الا القلب والكليتين من ثقب في الخاصرة ثم يغسلونها بخمر النخل

ويردونها الى اجوافها ويملأون الراس واجواف الامعاء بالمر والقرفة وكل انواع الاطياب والعطور ويدهنون الجسد بالزيوت العطرية مدة ثلاثين يومًا ثم يوضع في ماء نطرون اربعين يومًا ثم يلف بلفائف مغموسة بالمر وتدهن اللفائف من خارج بماء الصمغ للوقاية من الهواء ثم يوضع في تابوت من خشب او من حجر ويدفع لاهلهِ فيبقونهُ في بيوتهم او يضعونهُ في مدفن ومن هذه الاجساد ما هو باقٍ الى ايامنا هذه

واما ديانتهم فهي عبادة الاوثان فكانوا يعبدون الطيور والوحوش والشمس والقمر والنجوم . وكان من اعظم الهتهم العجل المسمى عندهم ابيس وكانوا يتعبون جدًّا حتى يجدوهُ لانهُ لم يكن كباقي العجول بل يجب ان يكون مولودًا من عجلةٍ تز عليها البرق وان يكون شعرهُ اسود وان يكون ايضًا على جبهتهِ بقعة بيضاء مثلثة الزوايا وفوق كل ذلك يجب ان يكون على ظهرهِ صورة نسر وتحت لسانهِ صورة خنفسة ويكون شعر ذنبهِ مضاعفًا وكان هذا العجل الهًا للعموم واما الكهنة فكانوا يعتقدونهُ رمزًا عن اوزيريس الذي هو اله الشمس . واما باقي الحيوانات الاخرى فكانت عندهم رمزًا عن بعض الالهة وعينت الشريعة اناسًا مخصوصين لخدمة هذه الحيوانات . واذا قتل انسانٌ احد هذه الحيوانات عمدًا عُرقب بالموت

العجل ابيس معبود المصريين

واما احكامهم الملكية فكانت مقيدة بوجود المجالس وكانت سطوة الملك نافذة في جميع الرعية اما الكهنة فكانوا اصحاب الشرائع والعلوم ومن وظائفهم مسح الاراضي وتقسيط الخراج على الناس ولم يكونوا يدفعون الجزية عن املاكهم وكان لكل منهم كل يوم قسم من اللحوم المقدسة ومن لحم البقر والاوز ومن العجب انهُ لم يسمح لهم ان ياكلوا سمكًا وكانوا يحافظون جدًّا على نظافة اجسادهم وملابسهم

وذكر هيرودوتس انهم كانوا يحلقون شعر اجسادهم كل ثلاثة ايام ولم يسمح لهم ان يلبسوا الا ثوبًا من كتان وكانوا يغتسلون بماء بارد مرتين في النهار ومرتين في الليل . اما الاراضي فكانت كلها للملك والكهنة والمحاربين واما الحراثون فلم يكونوا الا كالأجرى يشتغلون لغيرهم كالمستعبدين

مقانع شعر كانت كثيرة الاستعمال عند نساء المصريين القدماء

وكانت لغتهم من اعجب اللغات لانها لم تكن تكتب باحرف هجائية بل باشارات مستعارة من الاشباح الطبيعية وهي على نوعين الاول يشير الى اصوات يدلُّ عليها ببعض النقوش من التصاوير المختلفة . والثاني تحت هيئة اشباح

تدل على جمل مختصرة . وانحصر هذا النوع في روساء الكهنة فقط وبقي هذا القلم مجهولاً بين الناس حتى اهتدى الى معرفتهِ الحاذق الشهير المعلم شنبليون الفرنساوي سنة ١٨٢٢ مسيحية

الباب الخامس

في الدولة البطليموسية التي تغلبت على الديار المصرية بعد الفراعنة

انهُ بعد موت اسكندر الكبير تولى المملكة المصرية الدولة البليموسية ووقعت في نصيب سوطير بن لاغوس حين مقاسمة مما لك اسكندر سنة ٣٢٣ قبل الميلاد ويقال انهُ كان ابن فيلبس ابي اسكندر من بعض جواريهِ . وكان سوطير المذكور وهو بطليموس الاول يعرف اعتبار مصر ومقامها وكان حاذقًا عادلاً محبًّا للعلوم وهو الذي اتخذ الاسكندرية دارًا للملك وجمع فيها المكتبة المشهورة وانشأ بها مدرسة عظيمة وجدَّد مدنًا كثيرة وفتح الترع المردومة واعتنى باتساع التجارة واصلاح امور الزراعة والفلاحة وازدادت المملكة في ايامهِ غنىً وعلمًا وتمدنًا . وكان قد جهز جيشًا وارسل من قبلهِ قائدًا للتغلب على الديار الشامية فافتتحها واستولى عليها واستطال ذاك القائد على اليهود واسر منهم نحو مئة الف نفس وساقهم الى مصر وجار على من تخلف منهم بفلسطين جورًا عنيفًا

وتفرَّغ بطليموس في آخر ايامهِ لتنظيم المملكة فشرع في تتميم الهياكل والقصور والمباني العظيمة فمنها ضريح اسكندر الكبير الذي لا يعرف الآن

محل وجوده ومنارة الاسكندرية وغيرها وكثرت في ايامهِ التجارات والمخالطات مع الامم الاجنبية وبهذا تمكنت دولتهُ وامتدت صولتهُ مع انهُ سكن الاسكندرية وجعلها كرسي ملكتهِ ابقى مدينة منفيس على حالها لانها دار السلطنة رسمًا ومقر سرير الاحتفالات الملكية لا يلبس الملك التاج الملكي الاَّ فيها فكانت بمنزلة مصر القاهرة الآن بالنسبة الى الاسكندرية وكان فيها الهيكل الكبير المشتمل على الشعائر الدينية . وعاش هذا الملك متمتعًا بالسلم والراحة الى ان بلغ الثمانين من عمرهِ ثم مات لتسع وثلاثين سنة من ملكهِ

ثم قام بعدهُ ابنهُ بطليموس الثاني الملقب فيلادلفوس اي محب اخيهِ نهكمًا لانهُ كان يبغض اخوتهُ وكان ملتفتًا لتوسيع دائرة العلوم والفنون وانواع الصنائع وقد اكثر من تحصيل الكتب وجمع منها عددًا كثيرًا اضافها الى المكتبة التي انشأها ابوهُ وفي السنة العاشرة من ملكهِ اطلق اسرى اليهود من مصر ورد الاواني الذهبية الى بيت المقدس وحباهم بانية من الذهب مرصعة بانواع الجواهر الثمينة عليها صورة ارض مصر والنيل وامرهم بتعليقها في مسجد الهيكل . وكانت اللغة اليونانية في ايامهِ قد امتدت الى اقاصي ممالك الارض فامر بترجمة التوراة العبرانية الى اللغة اليونانية لمنفعة اليهود القاطنين بمصر الذين لم يفهموا اللغة العبرانية وكانوا كثيري العدد لان زهوة بلاد مصر جلبتهم الى هناك وسميت الترجمة المشار اليها الترجمة السبعينية لان مترجميها كانوا سبعين نفرًا وكان قد امر الكاهن مانيثو المصري بتاليف تاريخ مصر باللغة اليونانية فجمع هذا المولف تاريخهُ من الدفاتر الرسمية والاوراق القديمة المحفوظة في الهياكل والمعابد المصرية . وقد ورث هذا الملك من ابيهِ ممالك كثيرة غير الديار المصرية كمملكة القيروان وسواحل بر الشام وبلاد العرب وجزيرة قبرس وجزائر بحر الروم فاقتنع بها ولم يطمع في الحروب والفتوحات كباقي الملوك بل اقتصر على محافظة ممالكهِ والعكف على اعمال ومقاصد جسيمة ذات منافع وفوائد كاستكشاف طرق التجار بالاسفار والوقوف على حقيقة

منبع النيل وارسل سفنًا ايضًا لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السودانية

وخلف بطليموس الثاني ابنهُ بطليموس الثالث الملقب الكريم وكان ابتداء حكمهِ سنة ٢٤٦ ق م واتبع خطوات ابيهِ وجدهِ فسماهُ شعبهُ اورجيتيس اي المحسن الى شعبهِ وكان كثير الحروب والفتوحات وامتد حكمهُ الى نهر الفرات والجزيرة والعراق والى اقليمي خوزستان واذربيجان وهو الذي ارجع الالهة المصرية التي كان كمبيز قد اخذها من مصر وفي اثناء حروبهِ لانطيوخوس ملك سورية نذرت زوجتهُ برنيقي نذرًا وهو انهُ عند رجوع زوجها من غزوتهِ تقف شعر راسها للزهرة فلما رجع ظافرًا غانمًا وفت نذرها فجزت شعرها ووضعتهُ في هيكل الزهرة الاَّ انهُ لم يمضِ الاَّ زمانٌ يسيرٌ حتى فقد من الهيكل فخاف الحراس من جراء ذلك على نفوسهم من الملك واستعظموا هذا الامر. ولما بلغ الملك الخبر استشاط غضبًا وامر باحضار الحراس اليهِ عازمًا على قتلهم فدخل عليهِ بعض المنجمين وكان متقدمًا في بابهِ وقال لهُ قد بلغني فقد شعر الملكة من الهيكل وانيت اليك لاعلمك حقيقة هذا الامر وهو ان الزهرة قد نقلت شعر الملكة الى السماء ووضعتهُ بين النجوم فلما سمع الملك كلامهُ سرَّ بذلك وصفح عن ذنب الحراس. ومن ثم حسب شعر الملكة برنيقي من جملة صور النجوم. وكانت وفاة الملك المذكور سنة ٢٢٢ ق م

اما بطليموس الرابع وهو ابن الثالث المسمى فيلوباتر اي محب ابيهِ فحكم من سنة ٢٢٢ الى سنة ٢٠٥ ق م وكان قاسيًا دمويًا محبًّا للبذخ محاطًا باتباعٍ وحواشٍ خداعين مملقين ومن جملة قبائحهِ انهُ اثار اضطهادًا شديدًا على اليهود في جميع مملكتهِ وقتل ارسينوي وهي اختهُ وزوجتهُ معًا ثم مات محتقرًا مرذولاً من جميع رعيتهِ. وخلفهُ ابنهُ بطليموس الخامس الملقب ابيفانيس ومعناهُ الماجد حكم من سنة ٢٠٥ الى سنة ١٨١ وسار سيرة ابيهِ في المظالم والعدوان وارتكب من المآثم والقبائح ما ليس للناس طاقة على احتمالهِ وقيل انهُ سئل يومًا من اين ندفع اجور العساكر فاجاب كيف تخاطبونني بهذا السوال اما تعلمون ان

اموال احبابنا هي اموالنا واستمر على فظائعهِ وقبائحهِ الى ان مات مسمومًا . وهكذا ما زال هولاء الملوك يتولون الملك الواحد بعد الآخر حتى قامت الملكة كليوباترا الشهيرة بالجمال والقبائح

وكانت الملكة المذكورة قد تزوجت اخاها بطليموس ديونيسيوس في سن السبع عشرة سنة وهو في سن الثلاث عشرة وذلك سنة ٥٢ ق م . وكانت قد صممت ان تقبض على زمام السلطنة وتستقل بنفسها فلم يوافقها على ذلك الذين اقيموا اوصياء على زوجها فقاوموها وابعدوها فالتجأت الى اوغسطوس قيصر الروماني فتظاهر في القضية كمصلحٍ بينها وبين زوجها . وسنة ٤٧ ق م تزوجت اخاها الثاني ولم يكن قد اتى عليهِ احدى عشرة سنة من العمر فاقيم ملكًا على مصر بامر قيصر اربع سنين ثم مات مسمومًا على ما قيل . واذ كان للرومانيين نوعٌ من السلطة الادبية على البلاد المصرية بحسب وصية اسكندر الثاني وهو الملك العاشر من الدولة البطليموسية بان تكون مصر ملحقة برومية بشرط ان تكون ملوكها منها . فبعد توفي اوغسطوس المذكور استدعى كليوبترا القائد انطونيوس احد الشركاء في الدولة الرومانية ان توافيهُ الى طرسوس حيث كان مزمعًا ان يذهب لمحاربة بروتوس الروماني . فاجابتهُ الى ذلك وسارت قاصدة تلك الاطراف حتى وصلت الى ايالة صلفقة ومن هناك ركبت نهر كراصو وهو نهر طرسوس واجتازت النهر في سفينة مذهبة ارجوانية القلاع والاستار وكانت الملكة مزينة بافخر ما عندها من الثياب الثمينة والجواهر النفيسة ومعطرة بانواع العطور الذكية فكانت امواج النهر تموج طربًا بالنسيم على نغمات العود والدفوف والقيثار وروائح العطر والبخور تعبق وتفوح منها الى سائر النواحي حتى امتلات شواطي النهر من رياها . ولما اجتمع انطونيوس بها تعجب من فرط حسنها وجمالها فادخلها الى محلهِ الملكي وكان قد هيأ لها من الوليمة الفاخرة ما يكل عن وصفهِ اللسان ومن ذلك الوقت اخذ حبها منهُ كل ماخذ حتى سلبت عقلهُ واخذت بمجامع قلبهِ بحيث

لم يعد له صبرٌ على مفارقتها فاقامت معهُ اياماً وبعد ذلك جلبتهُ معها الى الاسكندرية وهناك تزوجتهُ . واذ كان لا يستطيع مفارقتها ولا يقدر ان يتخلص من اسر جمالها نسي وظيفتهُ والقيام بحقوق مامور يتهِ

وكان لانطونيوس زوجة اخرى يقال لها اوكافية وهي اخت القائد اوكتافيوس شريك انطونيوس في الرياسة الرومانية فلما تزوج كليوباترا حصل الشقاق والاختلاف بين القائدين . فاستعد اوكتافيوس لمقاومة انطونيوس والانتقام منهُ فقصد الديار المصرية بجنودٍ كثيرة فافتتحها بعد حروب هائلة يطول شرحها . ولما شعر انطونيوس بالغلبة طعن نفسهُ بخنجر فمات . واما كليوباترا فبعد ان افرغت جهدها في ان تسلب عقل اوكتافيوس وتاسرهُ بجمالها ولم تنجح صممت النية على قتل نفسها خوفاً من ان تبيت اسيرةً فيذهب بها الى رومية في حالة الذل والهوان فامانت نفسها شر ميتة . وقد اختلف المورخون في طريقة قتلها فمنهم من زعم انها شربت سماً وقال اخرون انها كانت احضرت ثعباناً صغيراً سامّاً اخفتهُ في وعاء لوقت الحاجة فلما كان ذلك اليوم جلست على سرير ملكها ووضعت تاجها على راسها وعليها ثيابها وزينتها وفرقت خدمها وجواريها ثم فتحت الوعاء الذي كان فيهِ الثعبان ووضعتهُ على ثديها فلسعها فماتت من وقتها وساعتها وانقرض ملك اليونانيين بهلاكها وكان ذلك سنة ٣٠ ق م . وكانت مدة حكم الدولة البطليموسية نحو ٢٩٤ سنة

الباب السادس

في من تولى مصر من اوائل ظهور الاسلام الى الدولة الفاطمية

ولما انقرضت دولة اليونان استولى على مصر الرومان واقامت البلاد

تحت تصرف احكامهم نحو سبع مئة سنة فكانت تحسب ولاية من الولايات الرومانية حتى استفتحها عمر بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٠ للميلاد واقام بها عمر المذكور والياً ٧ سنين ثم عزل في خلافة عثمان بن عفان وتولى بعدهُ عبد الله بن ابي السرح ثم غيرهُ من العمال الى ان انتهت الخلافة الاسلامية الى بني امية فكانوا يرسلون لها عمالاً من طرفهم مدة خلافتهم وكان جملة من تولى بالنيابة عنهم بمصر ستة وعشرين نفرًا في مدة مئة واحدى عشرة سنة . وكانوا يسمون عمال خراج مصر ويقيم الواحد منهم اشهرًا ثم يعزَل ويتولى غيرهُ . ثم جاءت بعدهم الدولة العباسية واستمرت مصر تابعة لها الى سنة ٨٦٨ حينما قام فيها احمد بن طولون وتغلب عليها وصار سلطانًا وكانت مدة سلطنتهِ ست عشرة سنة وشهرين وخلفتهُ ذريتهُ من بعدهِ واستمر الحكم في ايديهم ٣٧ سنة وهي المعروفة بالدولة الطولونية . ثم عادت نيابة العباسية بمصر في خلافة المكتفي فتولى منهم احد عشر نفرًا . وجاءت بعدهم الدولة الاخشيدية التي منها كافور الاخشيدي وكان حبشيًا اسمر اللون تسلطن سنة ٩٦٥ فاقام سنتين واربعة اشهر وخلفهُ بالملك ابو الفوارس احمد بن علي بن الاخشيد فاقام سنة واحدة وبهِ انقرضت الدولة الاخشيدية ثم جاءت بعدهم الدولة الفاطمية ونذكر شيئًا من اخبار ملوكها على وجه الاختصار

الباب السابع

في الدولة الفاطمية

عدد خلفاء هذه الدولة اربعة عشر كما مرَّ بيانهُ في جدول الخلفاء عند الكلام على دول العرب فمنهم ثلاثة ظهروا وماتوا في بلاد المغرب واحد عشر بمصر . واول هولاء هو المعزّ لدين الله بن المهدي عُبيد الله المغربي تولى

احكام الغرب بعد موت ابيهِ المنصور سنة ٩٥٣ للمسيح ثم استفتح الديار المصرية واستخلصها من الدولة الاخشيدية سنة ٩٦٧ بواسطة قائدهِ جوهر الصقلبي الذي بنى فيها مدينة القاهرة بامر المعزّ فدخلها المذكور سنة ٩٧١ ومن ذلك الوقت صارت بلاد مصر والغرب مملكة واحدة

وفي نسب هذه العائلة اقوالٌ كثيرة فمن الناس من رفع نسبهم الى فاطمة بنت الرسول ومنهم الى حسين بن محمد القدّاح وكان القدّاح رجلاً مجوسيًّا واخبارهُ معروفة ومعلومة عند اكثر المورخين . وكان المعز عادلاً منصفًا في الرعية غير انهُ كان شيعيًّا وامتد حكمهُ من حلب الى بلاد المغرب الى مكة كما امتدّت احكام الخلفاء العباسية في ايامهِ من بغداد وسائر ممالك المشرق الى العراق واعمالها واستمر المعز بالخلافة نحو اربع سنين ثم توفي سنة ٩٧٥ للمسيح

ومن هولاء الخلفاء الحاكم بامر الله وهو الخليفة الثالث من بني عبيد بمصر بويع بالخلافة بعد موت ابيهِ العزيز سنة ٩٩٦ وكان في اول امرهِ فاضلاً عادلاً مستقيم الاحوال ثم تغيرت اطوارهُ وزاد في الظلم والجور في حق الرعية وصار يامر باشياء تضحك منها الناس فمنها انهُ اجتاز يومًا بحمام الذهب فسمع فيها ضجيج النساء فامر ان يسد عليهنَّ باب الحمام فسدوهُ عليهنَّ حتى متنَ في الحمام كلهنَّ . ومنها انهُ امر ان لا يبيع احد زبيبًا ولا عنبًا ثم امر بحرق الكروم وقطعها فقُطع منها شيءٌ كثير ثم نهى الناس عن اكل الملوخية والقرع وعلّل ذلك بان معاوية بن ابي سفيان كان يميل الى الملوخية وان عائشة بنت ابي بكر كانت تميل الى القرع . ثم انهُ امر بقتل الكلاب فقتل نحو ٤٠ الف كلب في يوم واحد . وكان قد امر النصارى بلبس الازرق واليهود بلبس الاصفر وكانوا قبل ذلك في زيٍّ واحد يلبسون المآزر العسلية ثم اسكن اليهود في حارة زويلة وتهددهم بالقتل ان لم يدخلوا في الاسلام فخافوا منهُ واسلم منهم عددٌ غفيرٌ ثم امرهم بالرجوع الى اديانهم فارتد منهم في يومٍ واحد سبعة الاف نفر ثم امر بهدم معابدهم ثم امر باعادتها لهم . ومن اعمالهِ القبيحة انهُ امر بقتل العلماء

والادباء ثم ادعى الالوهة وكُتب لهُ باسم الحاكم الرحمن الرحيم وكان الجهال اذا راوهُ يقولون لهُ يا واحد يا احد يا محيي يا مميت ثم ادعى علم الغيب فكان يقول ان فلانًا قال في بيتهِ كذا وكذا واكل كذا وكذا ودخل لهُ كذا وكذا وكان ذلك باتفاق اعتمدهُ مع العجائز اللواتي كنَّ يدخلنَ الى بيوت الامراء وغيرهم ويخبرنهُ بما جرى . وكان هو واسلافهُ يدعون الشرف ويقولون انهم من ذرية علي بن ابي طالب وفاطمة بنت النبي وكان الحاكم بامر الله يذكر ذلك كثيرًا على المنبر في كل جمعة . وكان قد امر الرعية انهُ عند ما يذكر الخطيب اسمهُ على المنبر تقوم الناس صفوفًا اعظامًا لذكرهِ واحترامًا لاسمهِ واصدر امرًا الى سائر نوابهِ في المملكة ان تفعل هكذا حتى في مكة ايضًا وكان اكثر الناس في مصر اذا راوهُ خرُّوا وسجدوا . فلما طال الامر على الناس وتزايد جورهُ في حق الرعية اخذت اختهُ سيدة الملك في تدبير الحيلة على قتلهِ وكانت من اذكى واعقل نساء عصرها وكان الحاكم كثيرًا ما يتهددها بالقتل فخرجت في بعض الليالي واتت الى دار الامير سيف الدين بن دواس فاختلت بهِ واعلمتهُ بنفسها وقالت لهُ انت تعلم ما يجرى من اخي في سفك الدماء وخراب البلاد وقد صمم على قتلك وقتلي فقال وما الحيلة في امرهِ فقالت الراي عندي ان ترسل لهُ غلمانًا يقتلونهُ عند خروجهِ الى جبل المقطم فانهُ كثيرًا ما ينفرد بنفسهِ هناك واذا قتل تكون انت المدبر لدولة ولدهِ ووزيرهِ فاتفقا على ذلك ومضت سيدة الملك الى قصرها وفي الغد خرج الحاكم على عادتهِ وانفرد بنفسهِ في الجبل المذكور فعهد ابن دواس الى عشرة من العبيد السود واعطى كل واحد منهم خمس مئة دينار واعلمهم كيف يقتلونهُ فساروا من ورائهم واختفوا في تلك النواحي حتى ابصروهُ مقبلاً وحدهُ وليس معهُ احد فهجموا عليهِ وقتلوهُ وكانت مدة خلافتهِ خمسًا وعشرين سنة وشهرًا واحدًا ومن العجب ان في هذه الايام قومًا يعتقدون انهُ حيٌّ ويحلفون بغيبتهِ ويزعمون انهُ لا بد ان يظهر مرة ثانية ويدين العالم

وفي ايام المستنصر بالله وهو الخامس من خلفاء هذه الدولة حدثت المجاعة العظيمة التي لم يسمع بمثلها من قديم الزمان حتى اكل الناس بعضهم بعضًا فكان الكلب يباع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير واشتد الغلا وعظم البلا على الناس حتى صودف احيانًا ان الكلاب كانت تدخل الدور وتاكل الاطفال وهم في المهود وآباؤهم وامهاتهم ينظرون اليهم ولا يستطيعون النهوض لانقاذهم من شدة الجوع وكان الرجل احيانًا يسرق ابن جاره ويذبحهُ ويأكلهُ ولا ينكر ذلك عليهِ . وكان في مصر حارة بها عشرون دارًا كل دار يساوي ثمنها نحو الف دينار قيل انها بيعت كلها بطبق خبز فدعيت من ذلك اليوم بحارة الطبق. وخرجت امراة ذات يوم الى السوق وبيدها عقد من الجوهر فقالت من ياخذ مني هذا العقد ويعطيني عوضهُ قمحًا فلم تجد من ياخذهُ منها ثم التفتت الى العقد وقالت اذا كنت لاتنفعني وقت الحاجة فلا حاجة لي فيك والقتهُ على الارض غضبًا وانصرفت . ويقال ان الوزير ركب بغلتهُ يومًا واتى الى دار الخلافة فلما نزل عنها اخذها غلمانهُ واكلوها . وكان الرجل يمشي من جامع طولون الى باب زويلة ولا يرى في وجههِ انسانًا الا نادرًا . واقام المستنصر في الخلافة الى ان مات وكانت مدة خلافتهِ ستين سنة واربعة اشهر ولا يعلم في الاسلام خليفة ولا سلطان تولى هذه المدة غيرهُ . واستمرت ملوكهم تتناوب الملك واحدًا بعد آخر حتى انقرضت دولتهم في زمن العاضد بالله سنة ١١٧١ للميلاد وهو آخر ملوكهم حين ظهرت الدولة الايوبية الكردية فتكون مدة الخلافة الفاطمية المصرية ٢٠٥ سنوات

الباب الثامن

في الدولة الايوبية

ان اصل هذه الطائفة من بلاد اذربيجان بنواحي الكرج وهم اكراد

كانوا في خدمة محمود بن زنكي صاحب الديار الشامية فارسلهم الى مصر في بعض اشغال له فاقاموا بها مدة وقويت شوكتهم هناك واحبهم الناس نظرًا لوداعتهم وحسن سلوكهم ولما استقامت امورهم وامتدت صولتهم قتلوا وزير العاضد بالله باتفاق الاهالي وتولى منصب الوزارة منهم اسد الدين شيركوه اخو ايوب ابن عم صلاح الدين فقام بالوزارة نحو شهرين ثم مات واستوزر بعدهُ صلاح الدين ولما تمكن بالوزارة قطع اسم العاضد من الخطبة بمصر واعمالها واستقل بولاية الاحكام سنة ١١٧١ فمات العاضد غمًّا وقهرًا ودانت بعد ذلك لصلاح الدين احكام الديار المصرية وانفرد بملكها ثم استولى على الديار الشامية وأخذ القدس من الافرنج . وكان رجلًا شديد الباس عالي الهمة مسعودًا في حروبهِ ومغازيهِ وهو الذي بنى قلعة الجبل واقام سور القاهرة وكان في ايام الخلفاء الفاطميين مبنيًا باللبن وازال جند مصر من العبيد والصقالبة والروم والارمن وشناترة العرب وغيرهم من الطوائف التي كانت في الزمن القديم واستخدم عدة عساكر من الاكراد والترك وبالجملة لم ترَ مصر في ملوك الاسلامية قبلهُ مثلهُ في الشهرة والفتوحات وكانت مدة سلطنتهِ ثلاثًا وعشرين سنة . ومن سلاطين هذه الدولة الملك العادل سيف الدين اخو الملك صلاح الدين وكان في ايام اخيهِ صلاح الدين قد استولى على عدة ولايات وطالت ايامهُ في السعادة الى ان ملك الديار المصرية وهو الرابع من ملوك مصر من بني ايوب ومن الحوادث في ايامهِ انهُ جاء وباء عظيم بمصر سنة ١٢٠٠ وهلك خلقٌ كثير من الاغنياء والفقراء وجاء عقيب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع في البلاد ورحل كثير من الاهالي الى الشرق والغرب وكان الفقراء ياكلون لحوم الكلاب والحيوانات وينبشون القبور ويأكلون جيف الاموات واتصل امرهم اخيرًا الى خطف الاطفال في الاسواق من امهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم جهارًا في الاسواق والشوارع ويقال ان امراة دخلت يومًا على الملك وهي خائفة مرتعشة فسالها عن حالها فقالت اعلم يا مولاي اني

قابلة وان قومًا استدعوني في هذا الصباح لاولّد امراةً فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لي صحنًا فيهِ طعام كثير اللحم غير انهُ لا يشبه اللحم المعهود فانكرتهُ ولم تقبل نفسي عليهِ ثم وجدت بنتًا صغيرة هناك فاخذليت بها وسالتها عن ذلك اللحم فقالت البنت ان فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها ابي وها هي معلقة اربًا في هذه الخزانة فاقشعر جسمي من هذا الخبر وجئت في الحال الى تلك الخزانة وفتحها على حين غفلة فوجدتها مملوة من لحم تلك المراة التي ذكرتها لي البنت فاحتلت حتى خرجت من تلك الدار وجئت اليك لاعلمك بذلك وهذه قصتي فتعجب سيف الدين من كلامها وارسل معها من هجم على تلك الدار واخذ من فيها وهرب صاحب المنزل وبقي مختفيًا حتى اصلح امرهُ مع محافظ المدينة بدفع ثلاث مئة دينار فديةً عن نفسهِ

وكان كثيرون من الذين اعتادوا اكل لحم بني آدم يصيدون الناس باصناف الحيل والمخادعة فكانوا يستجلبونهم الى بيوتهم بانواع الملاعيب فيذبحونهم ويأكلونهم فوقع مرةً في اشراك هولاء القوم ثلاثة من مشاهير الاطباء احدهم خرج معهم ولم يرجع واما الثاني فان امراة اعطتهُ درهمين على ان يذهب معها الى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت بهِ في الازقة ومضايق الطرق استفاق على نفسهِ وعلم بالحيلة فخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتمها فتركتهُ وهربت واما الثالث فان رجلاً استدعاهُ الى زيارة مريض واطمعهُ بالاجرة فذهب معهُ وما زال يسير بهِ من مكان الى مكان حتى ادخلهُ دارًا خربة فارتاب الطبيب منهُ وتوقف في وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج اليهِ رفيقهُ وهو يقول لهُ هل مع هذه العاقة حصلت على صيدٍ ينفع فخاف الطبيب عند سماعهِ هذا الكلام وخفق قلبهُ وايقن بالهلاك وكان في حائط ذلك الدرج كوة تشرف على اسطبل فالقى نفسهُ منها فجاء في وسط الاسطبل فقام اليهِ صاحب الاسطبل وقال لهُ من انت ومن تكون فخاف خوفًا شديدًا وكتم امرهُ عنهُ خوفًا منهُ ايضًا فقال لهُ الرجل صاحب الاسطبل لا تخف قد

علمت حالك فاني تيقنت انّ اهل هذا المنزل يذبحون الناس بالاحتيال والخداع والحمد لله على سلامتك ثم اخرجهُ من ذلك المكان وسار معهُ حتى اوصلهُ الى السوق ولولا هذا الانفاق لهلك وانقطع خبرهُ . وكانت مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ الملك الكامل محمد وكان جليلاً مهيباً وهو صاحب الغزوات الكثيرة مع الطوائف الصليبية بثغر دماط وكان الافرنج لما استولوا على دمياط ونواحيها قد حصنوا اسوارها وشيدوا حصونها وابراجها خوفًا من هجوم المسلمين فارسل هذا الملك الكتب والرسائل الى سائر النواحي والاطراف يحث الاسلام وينهض غيرتهم الى الحضور لدفع الافرنج عن البلاد ونادى في القاهرة بالنفير العام فاجتمع اليهِ بمصر شعوب كثيرة من جميع الجهات ينوف عددهم على مئة وخمسين الف مقاتل فزحف بهذه الجموع ونزل تجاه المنصورة فالتقتهُ الافرنج وجرى بين الفريقين من القتال ما لا يسع هذا المختصر بيانهُ فانهزم الافرنج وارتدوا الى دمياط وحاصروا فيها وكانوا قد صمموا على الرحيل فارسل الملك الكامل يقول لملك الافرنج ارسل لنا رهائن منكم حتى نكف عن قتالكم بشرط ان ترحلوا من البلاد ونحن ايضًا نرسل لكم رهائن لتكونوا مطمئنين من غوائلنا عند التسليم فارسل لهُ ملك الافرنج عشرين سيدًا وارسل الملك الكامل ابنهُ صالح نجم الدين مع جماعةٍ من الامراء الى ملك الافرنج فعند ذلك سلمت الافرنج دمياط الى المسلمين واطلق كلٌّ من الفريقين ما عندهُ من الاسرى

واستمرت هذه الدولة الى سنة ١٢٥٠ مسيحية وعدد ملوكها تسعة انفار اولهم الملك صلاح الدين المذكور آنفًا واخرهم الملكة شجرة الدرّ زوجة الملك الصالح الايوبي وكانت هذه الملكة نادرة زمانها ذات عقل وحزم ومعرفة بسياسة الاحكام فتسلطنة لحسن سيرتها وجودة تدبيرها وكان وزيرها والقائم بتدبير احوالها الامير معزّ ابيك التركماني ولا يعلم في المسلمين امراة ارتقت الى سرير

الملك غيرها فاقامت بالسلطنة مدة ثلاثة اشهر ثم خلعت نفسها عن تخت المملكة وتزوّجت بالامير ايبك المذكور واقامتهُ ملكًا مكانها وهو اول ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية

الباب التاسع

في الدولة الجركسية احدى فروع الدولة التركية

كانت بداءة هذه الدولة من سنة ١٢٥٠ واستمرت الى سنة ١٥١٧ وعدة ملوكها سبعة واربعون اولهم الملك المعز ايبك المذكور واخرهم الملك الاشرف طومان باي وكانوا يلقبون بمماليك الدولة الايوبية الكردية ليمتازوا عن المماليك البحرية وكان الملك الصالح الايوبي قد اصطفاهم لخدمتهِ فكان لهم التقدم والامتياز في ايامهِ وهو ايضًا الذي انشا المماليك البحرية الذين تقلدوا زمام احكام مصر بامر الدولة العثمانية بعد هذه الدولة كما سياتي خبرهم واسكنهم بالقلعة التي كانت بالروضة على نهر النيل وكان عددهم نحو الف مملوك وكان لهم مسالح على شطوط النهر مشحونة بالعدد والسلاح ومهمات الحرب ولهذا كانوا يسمون بالمماليك البحرية

ومن اشهر ملوك الدولة الجركسية الملك الظاهر بيبرس تولى زمام الملك سنة ١٢٧٧ كان شجاعًا مقدامًا كثير المغازي والغارات متصفًا بالفراسة وحسن التدبير وفي ايامهِ كانت اكثر سواحل الديار الشامية في ايدي الصليبيين فسار اليهم وحاربهم واستخلص منهم مدنًا كثيرة بعد ان مكثت الحرب بينهم مدة طويلة واستمرت احكام القطر المصري تحت تصرف هذه الدولة الى زمن

السلطان سليم الاول بن بايزيد العثماني فاستخلصها منها سنة ١٥١٧ ومن ثمَّ صارت تحت حكم دولة آل عثمان فكانت ترسل اليها النواب والحكام الى سنة ١٧٦٥ في ايام السلطان مصطفى الثالث فانهُ قطع من مصر الحكومة الباشاوية وولاها للمماليك البحرية المقدم ذكرهم بشرط ان يجمعوا الاموال السلطانية وما بقي منها بعد المصاريف الميرية يرسل نصفهُ في كل عام الى الاستانة والنصف الثاني برسم المماليك على سبيل الرواتب واقام بينهم نائبًا من وزرائهِ لاجراء اوامرهِ في تلك الاطراف . وكان بكوات المماليك يصرفون المال على انفسهم ويدعون انهم صرفوهُ على التصليحات والترميمات ويرسلون في كل سنة دفتر المصاريف للدولة مسددًا عن يد الوزير المذكور الذي لم يكن في مصر الَّا على سبيل الصورة . وكان حكمهم قاسيًا جافيًا من غير قاعدة يظلمون الرعية ولا يبالون بنجاح البلاد وكان كبيرهم المعتمد عليهِ يسكن مدينة القاهرة ويلقب بشيخ البلد . ثم انهم عصوا بعد ذلك وتمردوا وخرجوا على الدولة في زمن السلطان سليم الثالث واستمروا في العصيان والظلم والطغيان الى سنة ١٧٩٨ حين حضر نابوليون بونابارتي باربعين الفًا من الجيوش الفرنساوية الى مصر فحاربهم وقهرهم وفرَّقهم في اقطار الصعيد والحجاز واستمرت احكام البلاد في قبضة يدهِ مدة ثلاث سنوات الى ان استخلصتها الدولة العثمانية بمحالفة انكلترا سنة ١٨٠١ واقامت عليها واليًا حسب الايام السابقة وبقيت على تلك الحالة نحو ثلاث سنين حتى تولى عليها محمد علي باشا

الباب العاشر

في العائلة المحمدية العلوية وهي الخديويَّة المصريَّة

ان راس هذه العائلة هو محمد علي باشا واصلهُ من مدينة قوالهِ من

محمد علي باشا خديوي مصر

بلاد الارناوط جاء الى مصر مع العساكر السلطانية الذين حضروا من بلاد الترك لمحاربة الفرنساويين فقاتل مع من قاتل واشتهر بالشجاعة في تلك الحروب حتى ارتقى في مدة قصيرة الى رتبة قائممقام ثم ساعدته الاقدار الى ان تقلد زمام احكام الديار المصرية سنة ١٨٠٤ فضُرب عليهِ مال معلوم يدفعهُ في كل سنة الى الباب العالي . ولما تمكنت احكامهُ في تلك الاطراف سار السيرة المرضية وعدل في الرعية وبدا في العمار ونظام المملكة وجلب اليها الضباط الفرنساوية لاجل ترتيب التعليمات العسكرية وبنى السفن الحربية واصلح احوالها وسيَّر الأمن والامان في كل مكان ورفع فيها اعلام المعارف والعلوم وتفرَّغ الى تقدمها حتى اخرجها من ذلك الظلام وصارت تُعدّ اقليمًا من البلاد الافرنجية. وكان هذا الخديوي مع علو شانهِ ورفعة مقامهِ انيسًا وحليمًا حسن التدبير بصيرًا بعواقب الامور مقتصدًا في تدبير مصاريف حكومتهِ وكان لهُ هيبة عظيمة في قلوب الناس حتى لم يجسر احد ان يتحرك ادنى حركة بخلاف الحق والاستقامة ولذلك لم يكن احدٌ من جنودهِ يتجاسر ان يتعدى على احد فانتشر العدل والامان في ايامهِ ورأت الناس من احكامهِ ما لم ترَهُ ولم تسمع بهِ . وكان قد افتتح الديار الشامية عن يد ابنهِ ابرهيم باشا الشجاع المشهور بسبب سوء تصرف عبد الله باشا والي عكا وكثرة جورهِ وظلمهِ للاهلين واستمرت احكامها في قبضة يدهِ من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤٠ حين حضرت العساكر العثمانية والبوارج الانكليزية واستخلصتاها منهُ . ومن اعمالهِ العظيمة انهُ افتتح بلاد السودان وضمها الى بلاد مصر بعد ان اقام فيها الحكام والولاة وبهذه الواسطة انفتح باب التجارة للخاص والعام وزادت اسباب الثروة وانفتح باب لدخول التمدن والنور بين تلك القبائل . وصرف محمد علي باقي عمرهِ بالعز والجاه الى ان جاوز الثمانين من عمرهِ فاعتراهُ مرض سوداوي فتنازل عن معاطاة الاحكام ثم مات بعد سنة وكانت مدة حكمهِ نحو خمس واربعين سنة

وتولى مكانهُ بعد تنازلهِ ابنهُ ابرهيم باشا سنة ١٨٤٨ وكان عالي الهمة شديد

الباس مستكملاً جميع الصفات الحربية والسياسة . وفي ايام ابيهِ كان قائد الجيوش المصرية واليهِ يرجع تدبير امورها فسلك مسلك ابيهِ واحسن المعاملة بين الرعايا . وكانت مدة ولايتهِ الديار المصرية احد عشر شهرًا وتوفي بداء الاسهال في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٤٨ وهو ابن ٦٢ سنة وتولى بعدهُ ابن اخيهِ عباس باشا فاقام بالولاية نحو خمس سنين وهو الذي شرع بانشاء التلغراف والطريق الحديدية من مصر الى الاسكندرية . ثم تولى بعدهُ عمهُ محمد سعيد باشا سنة ١٨٥٤ فكان جوادًا كريمًا وهو الذي انشأ طريق المنشية وغرس فيها الاشجار وجعلها من احسن المتنزهات . وكان قد شرع بوصل البحر الاحمر ببحر الروم بواسطة شراكة فرنساوية سنة ١٨٦٠ غير ان هذا العمل المهم لم يتجز الا في ايام خلفهِ سنة ١٨٦٩ وكانت مدة ولايتهِ نحو تسع سنين

اما انشاء ترعة السويس فقد حُسب من اعظم اعمال العصر ومن اكبر الفوائد للتجارة لانهُ قصَّر المسافة من اوربا الى الهند نحو ٢٧٥٠ ميلاً وسهَّل الاتصال بين الغرب والشرق حتى صار ممكنًا للانسان ان يدور حول الارض في مدة ٨٠ يومًا . اما طول تلك الترعة من السويس الى بورت سعيد فهو ٨٨ ميلاً وبلغت نفقتها نحو ١٠ ملايين ليرة انكليزية والآن اي في سنة ١٨٨٥ قد قرر اصحاب الاسهم على توسيع تلك الترعة لاجل سرعة سير السفن فيها والمظنون انهُ سيصير الشروع في ذلك حالاً

ثم تولى بعدهُ ابن اخيهِ اسمعيل باشا ابن ابرهيم باشا جلس على سرير القاهرة في ١٨ ك٢ سنة ١٨٦٣ وعند انفرادهِ بالحكومة بذل جهدهُ في تحسين البلاد واصلاحها ومن جملة مشروعاتهِ الخيرية ايصال التلغراف والطرق الحديدية الى بلاد السودان وادخال مجاري المياه لمصر واقامة المنارات في البحر الاحمر لوقاية السفن من الاخطار واصلاح الطرق والترع وتاسيس معامل الورق والسكر وهو الذي بنى مدينة الاسماعيلية وانشا بها البساتين والقصور الجميلة .

وفي ايامهِ صار فتح ترعة السويس المار ذكرها فاستدعى من الاقطار الافرنجية جميع الملوك والعظماء لمشاهدة نجاز هذا العمل واعد لهم كل ما يلزم من مزيد الاحترام والاعتبار فحضر بعضهم الى دعوة حضرتهِ والذي لم يمكنهُ الحضور ارسل احد ابنائهِ مكانهُ فاستقبلهم احسن استقبال وكان قد اعد لهم وليمة عظيمة فانشرحت صدورهم بما شاهدوهُ من حسن ترتيبهِ ونظامهِ . ومن اعمالهِ المستحقة الذكر انهُ ارسل السار صموئيل باكر القائد الانكليزي الى اواسط افريقية في فرقتين من العساكر المصرية والوف من البغال والجمال لاكتشاف اراضيها الشاسعة ولكي يخضع كل القبائل المتوحشة لافتتاح طريق التجارة ولابطال الاتجار بالعبيد وهو الذي اقام مجالس مختلطة في القطر للقضاء والحكم في الدعاوي التي بين الاجانب والرعايا . ومن اعمالهِ ايضاً انهُ قرّر وراثة الحكم من بعدهِ في عائلتهِ الخصوصية اي لابنهِ البكر ثم لابن ابنهِ حسب الطريقة الاوربية خلافاً للطريقة التي كانت جارية وهي انتقال الارث للاكبر في العائلة ولكن كل تلك الاصلاحات والتحسينات لم توازِ الاضرار التي نتجت من سوء صنيعهِ باستقراض الاموال من الافرنج وتكثير الديون على الحكومة بارباحٍ باهظة حتى بلغ الفائض السنوي في وقتٍ ما على الاوراق المالية المصرية ٣٥ في المئة . اما المبلغ الذي اقترضهُ في مدة ١٢ سنة من حكمهِ فبلغ مع فائضهِ تسعين مليون ليرة انكليزية وفائضهُ السنوي اربعة ملايين وخمس مئة الف ليرة انكليزية وهو نحو نصف ايراد المملكة . واذ لم يَعُد في مقدرة الحكومة القيام بايفاء ما يطلب منها وخوفاً من ازدياد الشر لو بقي اسماعيل باشا مطلق التصرف على المالية المصرية اتفقت دول اوربا على نزع تلك السلطة من يدهِ واقامة معتمدين اوربيين لاجل مراقبة المالية وحصر الايراد والخرج فوقع الانتخاب على رجل انكليزي ورجل فرنساوي كنوّاب الامتين صاحبتي الدين الاكثر فاستلما زمام المالية وقاما باعباء ماموريتهما احسن قيام فساء ذلك اسماعيل باشا نظراً لانحطاط سلطتهِ وهبوط قدرهِ وحاول الغاء ذلك الترتيب وتلك المراقبة الاجنبية فلم

يتنفع شيئًا لانهُ كان قد تقرر في عقول فرانسا وانكلترا وغيرها ان اعادة السلطة اليهِ تؤدي الى خراب البلاد خرابًا كاملاً واذ راوهُ غير مبالٍ لمشوراتهم ومرغوباتهم ومصرًّا على مقاومتهم اتفقوا جميعًا على عزلهِ من منصبهِ فاسترخصوا الباب العالي في ذلك وخلعوهُ في بداية سنة ١٨٧٩ ونفوهُ من البلاد واقاموا ابنهُ توفيق باشا مكانهُ وهو الخديوي الحالي موصوفًا بالزهد وحسن الطوية محبًّا لشعبهِ وخير البلاد

الباب الحادي عشر

في الثورة العرابية ودخول الانكليز بلاد مصر وظهور الثورة السودانية وذلك مدة ثلاث سنين من اواسط سنة ١٨٨٢ الى اواسط سنة ١٨٨٥

لما كانت قلوب الاهالي امتلأت بغضًا للافرنج بسبب نفوذهم وسيادتهم واستيلائهم على الوظائف الكبرى والمرتبات العليا اخذت الجرائد الوطنية تلهج بهذا الامر وتنهض همة الشعب للتخلص من الافرنج والاستقلال في البلاد فاغتنم فرصة ذلك احمد عرابي باشا ناظر الجهادية المصرية وهو مصري الاصل كان قد ارتقى الى تلك الرتبة العالية بواسطة اجتهادهِ وعلو همتهِ وتظاهر بالعصيان على الحكومة الخديوية بعد ان كان انحاز اليهِ القسم الاكبر من قواد العساكر بسبب انقطاع الحكومة عن صرف مرتباتهم اشهرًا عديدة فجاهر بالتمرد ورفض الطاعة وتبعهُ حزب كبير ليس فقط من متوظفي الحكومة بل من الاهالي ايضًا فكان مقدامًا للثورة ورئيسها فهددتهُ دولتا انكلترا وفرانسا وامرتاهُ ان يكف عن غيهِ وغرورهِ فابى الاستماع وسدَّ آذانهُ عن مشورات نواهيما لا بل انهُ زاد

اصرارًا في عزمهِ واظهر استعدادهُ لمقاومتها فارسلتا اسطولها الى ميناء الاسكندرية وتهددتاهُ بالضرب فاخذ يحصّن القلاع ويتجهز للدفاع فهاج اوباش المسلمين ضد الافرنج في مدينة الاسكندرية في ١١ حزيران سنة ١٨٨٢ وقتلوا منهم اكثر من مئة شخص وشاع بين الجميع ان عرابي باشا هو الذي اثار تلك الفتنة ولكنهُ لم يثبت عليهِ ذلك بنوعٍ جلي فتعاظم الامر وكثر الخوف عند الاجانب اوربيين وسوريين سواء واخذوا يهجرون الديار المصرية ويذهبون الى اوطانهم فكان عدد الذين نزحوا نحو ٦٠ الفًا

ولما كان طمع عرابي باشا لا يزال مزينًا لهُ المحال في مداومة المقاومة وكانت سياسة انكلترا تستدعي توقيف الثورة واعادة السيادة الخديوية كما كانت ليس فقط حفظًا لطريق الهند الذي هو من اهم الامور عندها ولكن منعًا لدخول جنود الفرانساويين كما كان اشار سابقًا غامبتا احد رجال سياسة فرانسا فتصبح طريق الانكليز للشرق في قبضة يد دولة قوية كفرانسا اعتمدت الوزارة الانكليزية على توقيف الثورة بالقوة الجبرية ودعت فرانسا الى مشاركتها في ذلك فابت ولم تقبل . حينئذٍ اطلق الاسطول الانكليزي قنابلهُ على قلع الاسكندرية في اواسط شهر تموز من السنة نفسها وفي اقل من ١٢ ساعة هدمها كلها ولجأ عرابي وجماعتهُ الى الفرار بعد ان احرقوا قسمًا كبيرًا من المدينة حيث تسكن الافرنج والسوريون وتحصن مع جنودهِ في كفر الدوار . فانزل الانكليز قسمًا من الجنود استلموا زمام المدينة وما مضى ٣٠ يومًا حتى احتشد في الاسكندرية وفي السويس نحو ٣٠ الفًا من الجنود الانكليزية تحت قيادة السار كارنت ولسلي واذ راى المذكور ان مهاجمة الاعداء من جهة كفر الدوار كثيرة الخطر نقل القوات العسكرية الى الاسماعيلية حيث كانت جيوش الهند محتشدة وضرب عرابي وقواتهِ في تل الكبير حيث كان متحصنًا مع ثلاثين الفًا من الجنود فهزمهُ في ١٤ ايلول وبدد شمل عساكرهِ وسير الجيوش الى القاهرة فدخلوها في اليوم الثاني واستلموا القلعة وقبضوا على عرابي وجماعتهِ ونادوا بسيادة الخديوي وبعد

ان حاكموهم واثبتوا خيانتهم عفوا عن قتلهم ونفوهم الى جزيرة سيلان

وبينما كانت الثورة العرابية قائمةً في مصر نهض رجل من عرب جنوبي افريقية اسمهُ محمد احمد لقب نفسهُ بالمهدي وجمع حولهُ جيوشًا من الناس وتقدم بهم الى البلاد السودانية التي تحت تسلط خديوية مصر فضرب بعض الاماكن وتملكها ونهب اهاليها فارسلت الحكومة المصرية عسكرًا تعزيزًا لحامية تلك الاماكن تحت قيادة هيكس باشا الانكليزي فكسرهم المهدي ومزّق صفوفهم بعد ان قتل منهم عددًا غفيرًا وكان من جملة القتلى القائد الانكليزي المشار اليهِ . ثم ان المهدي ارسل فرقة من جنودهِ الى السودان الشرقية فاستولوا على عدة مقاطعات مصرية حتى اقتربوا من سواكن التي هي على شواطي بحر الاحمر فأُرسلت فرقة جنود من مصر لمقاومتهم تحت قيادة باكر باشا الانكليزي ولما تقابل الفريقان في ساحة القتال ارتد المصريون الى الوراء منهزمين من غير قتال فقتل منهم في ذلك اليوم نحو ثلاثة الاف ولم ينجُ الاَّ القليلون مع قائدهم باكر باشا فعند ذلك تحمست الدولة البريطانية وقاية للمصالح المصرية وجاهرت بمقاومة الاعداء فارسلت فرقةً تحت رياسة الجنرال كراهام وضربت العرب ضربة هائلة وقتلت منهم اكثر من ٦٠٠٠ شخص ثم عادت العساكر الى القاهرة بعد ان اقاموا في سواكن حامية كافية لردع المهاجمين

وكانت انكلترا قد اشارت على الحكومة المصرية ان تتخلى عن البلاد السودانية وتسلخها عن مصر تخفيفًا للمصاريف وللمسئولية وقررت على جعل تخومها وادي حلفا فاذعنت الى ذلك وقبلتهُ الاَّ انهُ لما كانت المراكز السودانية مملوءة من الحامية المصرية وهي في خطر من هجمات المهدي ولم يكن في استطاعة الحكومة ان ترسل جنودًا لانقاذ تلك النقط المتعددة بسبب ارتباكها السياسي والمالي وقع الاستحسان على ارسال غوردون باشا الانكليزي الذي كان حكمدارًا سابقًا على السودان على رجاء ان يصلح الاحوال اذا امكن ويسحب العساكر المصرية من تلك الانحاء فذهب الى الخرطوم وحاصرها نحوًا من سنة

ولكنهُ لم يستطع ان يكبح هياج الاعداء لا بالنفوذ ولا بالقوة فاعتمدت الدولة البريتانية على ارسال جنود انكليزية لانقاذهِ من مكان حجرهِ لانهُ اصبح غير قادر على التخلص فارسلت في خريف سنة ١٨٨٤ عشرة الاف جنديّ تحت رياسة الجنرال لورد ولسلي الذي افتتح الديار المصرية سنة ١٨٨٢ ولما وصلوا الى مقربة من الخرطوم فاجأتهم جنود المهدي والتحم بينهم قتالان شديدان كانت الدائرة فيهما على السود فانهزموا بعد ان قتل منهم نحو خمسة الاف رجل . وبينما كان الانكليز منتصرين ومؤملين سرعة دخولهم الى الخرطوم وردت اخبار سقوط تلك المدينة ودخول الاعداء اليها وقتلهم الجنرال غوردون فحبطت امانيهم وخابت مساعيهم واشتد الخطب عليهم اذ لم يكن ممكنًا لهم استخلاص المدينة في الحال لقلة عددهم وتكاثر اعدائهم ضمن اسوار تلك المدينة المحصنة

وكان السبب في سقوط الخرطوم خيانة بعض القواد المصريين ممن كان يركن اليهم غوردون باشا كل الركون واخصهم رجل يقال لهُ فرَج باشا ولم نجد بدًّا من ذكر اسمهِ ليكون محفوظًا في التاريخ على توالي القرون وكأنَّ غوردون ينشد بلسان حالهِ

كل الامور اذا ضاقت لها فَرَجٌ لكن اموري اتاها الضيق من فَرَجِ

وكان غوردون باشا يعز هذا الرجل لما ظهر لهُ فيهِ من حسن الاستعداد فرقّاهُ من درجة الى درجة حتى اوصلهُ الى رتبة الباشاوية وكان يعتمد عليهِ ويظنهُ صادقًا مخلصًا بينما كان هو عدوًّا خائنًا يراسل الاعداء سرًّا ويدبّر على تسليمهم المدينة . ولما تحقق ان الانكليز صاروا على مقربة من الخرطوم وهم فائزون اظهر ما كان مكنونًا وابان ما كان مخفيًّ وفي ٢٦ من شهر كانون الثاني سنة ١٨٨٥ فتح ابواب المدينة للاعداء بينما كان غوردون باشا مستكنًّا في قصر الحكومة فدخلوها من غير مانع وعلت اصواتهم وضجاتهم في الشوارع وهجموا على المسيحيين والافرنج القاطنين هناك فقتلوهم ولما خرج غوردون باشا ليتحقق

سبب ذلك الهياج لافوهُ باطلاق الرصاص فوقع قتيلاً وهكذا انتهت حياة هذا البطل الشهير

اما الانكليز فلم يعد ممكنًا لهم التقدم على الخرطوم لاستخلاصها نظرًا لقلتهم واذ كان فصل الربيع قد دخل ومياه النيل نقصت لم يبقَ سبيلٌ لتعزيز قوتهم الحربية واستحضار الجيوش من القاهرة على الخصوص لان المحاربة في تلك الديار الحارة في زمن الصيف لا يمكن اتمامها فصمموا حينئذٍ على توقيف الحرب وتاجيلها الى فصل الخريف القادم فرجعوا الى الوراء واخذوا لانفسهم مراكز في جوار دنقلة وطلبوا الامداد من حكومتهم وكان ذلك امرًا معيبًا

ولما كانت الخطة التي سلكها اللورد ولسلي قائد الجيوش الانكليزية في توجيه هذه الحملة عن طريق النيل عوضًا عن طريق سواكن الى بربر هي خطة غير مستقيمة تقرر عدم استوائها قبل معرفة النتيجة عادت الحكومة الانكليزية الى راي العموم الاول وبعثت التجريدة الجديدة عن طريق سواكن فعينت اثني عشر الف مقاتل لهذه الحملة تحت رياسة الجنرال كراهم ليسيروا الى بربر لاعانة زملائهم في الخريف وشرعت في وضع سكة حديد بين سواكن وبربر لابد انها تاتي بفوائد كثيرة في المستقبل ولكن في هذه ايضًا لم يحصل المرغوب لانهُ بعد ان حلّت الجيوش في سواكن وضربوا الاعداء وابعدوهم عن جوار المدينة وشرعوا في وضع السكة الحديدية صدرت لهم اوامر الوزارة بتاركة القتال والعودة والتاهب لمحاربة الروسيين في جهة افغانستان والله اعلم بما سيكون

اما سياسة الوزارة الانكليزية في الديار المصرية فكانت خالية من الصواب وبمعزل عن الروية والسداد ولذلك اورثت الامة خسران المال والرجال وجلبت عليها العار والوبال وجعلت الناس ينسبون اليها المكر والدهاء والطمع في ضمّ البلاد الى باقي املاكها مع ان ذلك لم يكن من مقاصدها حسب ما صرّحت واوضحت فاذا كان ما قرّرتهُ هو ما تنويهِ حقيقةً فتكون

ارتكبت افظع الاغلاط ويكون ضربها الاسكندرية ودخولها القطر وتداخلها في ادارة الاحكام المحلية وضربها العرب من جهة سواكن اول مرة ثم رجوعها عنها في الحال وارسالها غوردون باشا الى الخرطوم ثم ارسالها حملة النيل لاجل تخليصهِ وضرب سواكن ثاني مرة والشروع في مد السكة الحديد الى بربر ثم العدول عن ذلك جهلاً صِرفًا لا يرتكبهُ الجَهَلة من الناس

الفصل الثالث

في تاريخ قرطاجنة

الباب الاول

في وصف قرطاجنَّة وحروبها مع الرومان من سنة ٨٤٠ الى سنة ٢٦٤ ق م

وكانت قرطاجنَّة مدينة عظيمة من اشهر مدن افريقية القديمة والحديثة وكانت مبنية بقرب خليجٍ سمّي اخيرًا بخليج قرطاجنة نسبةً اليها المعروف الآن بخليج تونس . وكانت في تلك الاعصار تتحلَّى كعروسٍ على ما سواها من المدائن نظرًا لابنيتها الجميلة ومراسيها العظيمة ومناظرها المبهجة الزهية . وكان السبب في بنائها انهُ لما قتَل بيكمالبون ملك صور رئيس الكهنة اسرباس زوج شقيقتهِ ديدون طمعًا بمالهِ وذخائرهِ هربت ديدون المذكورة بعد قتل زوجها من ظلم اخيها وجورهِ مع عددٍ كثير من اكابر بيت ابيها واعيانهِ ومعها ذخائر واموال بعلها الى نواحي افريقية الواقعة تجاه سيسيليا وابتاعت من اهالي تلك النواحي ارضًا واسعة واسست مدينة بالقرب من تونس ودعت اسمها قرطاجنة

اي الجديدة وذلك بمساعدة البعض من اهالي تلك البلاد وغيرهم من الفينيقيين الذين كانوا هناك . ووضعت أُسس هذه المدينة على حسب قول بعض المورخين سنة ٨٧٨ قبل الميلاد وقال آخرون سنة ٨٤٠ وظن البعض انها بنيت في ايام بواش ملك يهوذا سنة ٨٤٦ وهو اصح الاقوال واشهرها . وكان جارباس احد ملوك تلك الاطراف قد خطب ديدون صاحبة قرطاجنة لنفسهِ وذلك بعد ما تغلب على مدينتها فابت وامتنعت لانها كانت قد آلت على نفسها انها لا تتزوج برجلٍ على بعلها المقتول في صور فلما راى عدم ميلها الى الزواج اراد ان يغتصبها قهرًا فاضطرها الحال الى ان حرقت نفسها بالنار وانتهت على هذه الصورة . فهذه بداءة واصل مملكة قرطاجنة التي صارت فيما بعد من الممالك العظيمة بل بالحري من اقوى واقدر ممالك تلك الازمنة واغناها وقد ارتقت الى اعلى درجة في العظمة والاقتدار حتى كادت تهدم بشوكتها وسطوتها اركان قواعد الدولة الرومانية كما سياتي بيان ذلك

اما مدينة قرطاجنة فكانت اولاً مدينة تجارية وقد ورث اهلها من اباءهم محبة التجارة فكانوا منعكفين ومثابرين على الاخذ والعطاء وما زالوا في ازدياد ونمو حتى وصلوا الى درجة اباءهم اهل مدينة صور في الغنى والجاه وفاقوهم باتساع دائرة الحكومة واشتهروا بين الممالك وتكوَّنت منهم دولة عظيمة . وكانت حكومتهم في اول الامر حكومة ملكية ثم تحولت الى حكومة جمهورية تحت رياسة رجلين من اعضاء المجلس العالي كانا يفصلان المشاكل ويديران امور الدولة ويجريان الاحكام التي لم يكن يؤذن باجرائها الا بعد مصادقة المجلس الكبير الذي كان مؤلفًا من ثلاث مئة عضو وقيل من ست مئة . اما شعب قرطاجنة فكان مختلف الاجناس غير ان اصلهم من فينيقية ومما يؤيد ذلك ان لغتهم كانت اشبه باللغة الفينيقية والعبرانية واقرب اليها حتى في الديانة ايضًا وكانوا موصوفين بالطمع وحب المكاسب . وقد انقطعت عنا اخبارهم وتفاصيل احوالهم نظرًا لاختلاف ديانتهم وشرائعهم عن اديان وعوائد اليونان

وغيرهم من الامم المجاورة فكانوا يكتمونها عنهم خوفًا من غائلتهم لانهم كانوا شعبًا غريبًا ووحيدًا في تلك الجهات ولم يبقَ لنا من تواريخهم الاَّ بعض آثار نقوش وغيرها ومنها نعلم ان تجارتهم كانت على نوعٍ ما تجارة صورية وخلاصة الكلام فيهم انهم وسعوا تجارتهم جدًّا حتى فاقت تجارة الاسكندرية لكثرة المعادن التي اكتشفها اباؤهم في اسبانيا ووجود المحاصيل الكثيرة فيها وفي البلاد المجاورة لها . وما زال اهل قرطاجنة في نجاحٍ واقبال حتى امتدت سطوتهم الى اكثر شمالي افريقية كاقليم تونس وطرابلس الغرب وغيرها من ممالك البربر ثم افتتحوا جزائر باليار وجزًا كبيرًا من جنوبي اسبانيا وسردينيا وكورسيكا ومالطة ثم انتهى بهم الحال الى ان تغلبوا على سيسيليا وكان افتتاحهم لهذه الجزيرة سببًا لانتشاب الحروب الهائلة بينهم وبين الرومانيين كما سياتي خبرهُ

الباب الثاني

في الحروب بين قرطاجنة ورومية من سنة ٢٦٤ ق م الى وقت خرابها الاول سنة ١٤٥ ق م ثم تجديدها ثانيةً وخرابها الاخير سنة ٦٩٣ بعد المسيح

وكان السبب في انتشاب الحروب بين مملكة قرطاجنة ودولة الرومانيين هو ان قومًا من سكان جنوبي ايطاليا كانوا قد التجأوا الى الرومانيين واستغاثوا بهم على هيرو ملك سرقوسا في سيسيليا فانتدب اهل قرطاجنة لنجدة ملك سرقوسا وكان الرومانيون قد ارسلوا جيشًا عظيمًا لتلك الاطراف فانتصروا وتغلبوا على جيشي سرقوسا وقرطاجنة معًا . فداخل ملك سرقوسا خوف من اهل قرطاجنة ان تطمع في بلادهِ وتستولي عليها بعد ذلك فقطع مع الرومانيين

عهدًا املاً انهُ بمساعدتهم لهُ يطرد جيوش قرطاجنة من اطراف بلادهِ فاجابهُ الرومانيون الى ذلك ومن ثم شبت نيران الحرب بين المملكتين

ولم يكن الرومانيون قبل ذلك الوقت قد امتدوا الى خارج ايطاليا ولم تكن لهم قوة بحرية اصلاً . وكانت مملكة قرطاجنة يومئذٍ في زهوة عظيمة وقوة بحرية واذ كان الرومانيون لا يستطيعون مقاومة اهل قرطاجنة بدون قوة بحرية بنوا نحو مئة سفينة وحاربوا القوم وانتصروا عليهم وغنموا منهم ٥٠ مركبًا ثم زادوا عدد مراكبهم حتى بلغت ٢٠٠ سفينة وانتصروا على القرطاجنيين ثانيةً واستخلصوا منهم ٦٠ مركبًا واستولوا على جزيرة كورسيكا وسردينيا . ثم تقدموا الى نواحي افريقية ونزلوا على مدينة قرطاجنة تحت رياسة القنصل ريغولوس واقاموا عليها الحصار حتى كادوا يتملكونها لولا مساعدة اهل اسبارتة الذين قد امدُّوا اهل قرطاجنة بجيشٍ تحت راية القائد كسانتيب فانكسر الرومانيون واسر قائدهم ريغولوس فارسلهُ اهل قرطاجنة الى رومية لكي يعرض على دولتهِ شروط الصلح . فذهب وعند وصولهِ الى رومية اقنع الحكومة الرومانية بعدم قبول المصالحة وان طلب قرطاجنة هذا صادر عن عجز وضعف ثم عاد الى قرطاجنة كي لا يناقض قولهُ فقتلوهُ وهكذا انتهت الحرب الاولى التي دامت مدة ٢٤ سنة

وكانت مدة الصلح بين المملكتين المذكورتين نحو ٢٣ سنة وعند نهاية هذه المدة قام هنيبال بن هملكار رئيس جيش قرطاجنة في الحرب الاولى وحاصر احدى مدن اسبانيا التي كانت متحزبة مع الرومانيين مدة سبعة اشهر ولما اشتد حصارها احرقها اهلها بالنار خوفًا من وقوعها في ايدي الاعداء ثم تقدم هنيبال المذكور بجيوشهِ الى داخل البلاد وقطع جبال الالب حتى توصل الى شمالي ايطاليا وحارب الرومانيين في وسط بلادهم وانتصر عليهم في جملة وقائع وذبح منهم عددًا لا يحصى وقيل انهُ ارسل اربعة ربوع من خواتم ذهب نزعها عن اصابع القتلى . وبقي هنيبال نحو ١٢ سنة في ايطاليا ولكنهُ لم ينجح اخيرًا النجاح

التمام نظرًا لعدم الامداد . وفي اثناء ذلك جهز الرومانيون جيشًا عرمرمًا تحت راية القائد المشهور المدعو شيبيو وكان يلقب بالافريكاني فزحف بجنودهِ واستخلص جميع املاك قرطاجنة في اسبانيا ثم ركب السفن وتقدم الى سواحل قرطاجنة فلما راى اهلها الاخطار المحدقة بهم ارسلوا من فورهم يستدعون القائد هنيبال ان يرجع حالاً لنجدتهم فارتد راجعًا بعد مشقات ومتاعب لاتوصف وكان قد فقد جانبًا عظيمًا من جيشهِ في تلك الحروب الخارجية . فالتقى هذان البطلان في مرجٍ واسع من سهول افريقية وشبت بين العسكرين نيران القتال وكانت الدائرة على عساكر قرطاجنة فانهزمت اقبح هزيمة بعد ان قتل منها عددٌ عظيم . ثم انعقد الصلح بين الطرفين بشرط ان القرطاجنيين يسلمون جميع جزائر البحر المتوسط مع سيسيليا واسبانيا وجميع مراكبهم ما عدا عشرة منها الى الرومانيين وانهم لا يثيرون بعد ذلك حربًا الاَّ باذن رومية وهكذا كانت نهاية الحرب الثانية التي دامت مدة ١٧ سنة

فاستمر الحال بين قرطاجنة ورومية في صلح وسلام من سنة ٢١٠ الى سنة ١٤٩ ق م حين شبت الحرب الثالثة بينهما . وكان السبب في ذلك هو ان ملك نوميديا التي هي الآن جزء من بلاد الجزائر كان بينهُ وبين رومية محالفة وعهود فاختلس بعض الولايات التابعة لاحكام قرطاجنة فقام عليهِ القرطاجنيون وحاربوهُ فاستشاط الرومانيون غضبًا من جرى ذلك بزعمهم ان هذا العمل من باب التعدي من اهل قرطاجنة على شروطهم المعقودة وصمموا على محاربتهم وخراب المدينة عن آخرها فجندوا الجنود وارسلوها الى تلك الاطراف تحت قيادة القائد شيبيو المذكور آنفًا فحاصر المدينة وافتتحها بعد حرب اربع سنين ثم احرقها بالنار وكان ذلك سنة ١٤٥ ق م

وسنة ١٢٠ ق م جلب اليها غراكس الروماني شعوبًا غريبة فرمموها وسكنوها ثم جدَّد عمارها اوغسطس قيصر ولكن ليس في نفس مكانها الاول وهكذا بمدة يسيرة نمت قرطاجنة الجديدة نموًّا عظيمًا حتى صارت من اشهر

مدن افريقية الرومانية ومن ثم استولى عليها الفندا ليون سنة ٤٢٩ للمسيح وسنة ٦٩٣ افتتحها العرب وهدموها عن آخرها وما زالت خرابًا الى يومنا هذا ولا يرى من بقاياها العظيمة غير رسوم دارسة واثار بالية وخرابها الآن يبعد من مدينة تونس مسافة ثلاث ساعات الى الشمال الشرقي

الفصل الرابع

في بلاد الحبشة

هذه البلاد واقعة في الجهة الشرقية من قارة افريقية ومحدودة شمالاً ببلاد النوبية وشرقًا بالبحر الاحمر وغربًا ببلاد الشلوك وجنوبًا بسلسلتي جبال متشعبة من جبال القمر يخرج منها عدة انهر متفرعة من بحر النيل الازرق والابيض تمر فيها وتسقي اراضيها . وعدد اهلها نحو اربعة ملايين دُعيت قديمًا باسم ايثيوبيا واشتملت ايضًا على بلاد النوبية مع باقي الولايات والاقاليم الواقعة في داخل افريقية . واول من قصدها واستوطنها قومٌ من بلاد العرب لا يعرف احدٌ عنهم شيئًا خصوصيًا لقدميتهم وتقادم عهدهم . وكان قسم كبير من هذه البلاد يدعى سبًا ومنه اتت ملكة سبا على ما يُظن الى اورشليم لزيارة الملك سليمان الحكيم . ويقال ايضًا ان الملك الذي تناوب كرسي ملكة الحبشة من نحو ثلاثين سنة من هذا العهد هو من سلالة هذه الملكة المذكورة

وكانت اهالي هذه البلاد في الايام السالفة على دين اليهود ثم دخلت اليها الديانة المسيحية في اواسط القرن الرابع فتنصرت الملكة كنداكة مع جميع رعاياها ثم امتدت النصرانية الى بلاد النوبية في القرن السابع بواسطة القبط الذين التجأوا الى هناك عند ما افتتح المسلمون ديار مصر . ولكن عند دخول الملك الظاهر بيبرس اليها في القرن الثالث عشر قويت فيها شوكة المسلمين وانتشرت

ديانتهم هناك . واما اهل الحبشة فلا يزالون متدينين بديانة مسيحية ممزوجة بعقائد وطقوس اخرى وبطريركهم يسمى من قبل بطريرك القبط في مصر

وكانت العادة الجارية في هذه البلاد ان ينفوا اكابر امرائهم الى جبلٍ يسمى جشن وهذا الجبل في غاية الارتفاع وهو منتصب على هيئة متساوية من جميع الاطراف حتى انهُ لم يستطع الصعود عليهِ او النزول عنهُ الاَّ بواسطة السحب والتدلي بالحبال . وكان هولاء المنفيون يسكنون في اكواخٍ دنية على قمة هذا الجبل ولا يباح لهم بالنزول الا في وقت مماتهم وكان عموم الاهالي عند موت الملك ينتخبون احد هولاء الامراء ليخلفهُ على الكرسي وفي الجهات العربية شمالي بلاد النوبة جنس من العبيد يسمون الغلاَّ يشبهون القرود في صورة وجوههم وهم طوائف متوحشة ليس لهم مساكن يأوون اليها بل يصرفون حياتهم في صيد الافيال والنعام ويرقدون بين الاحراش كالبهائم وقد وصفهم بطليموس تحت اسم اليفتوفاج وستروفيوثاج وهما كلمتان يونانيتان معناهما آكلو الافيال وآكلو النعام . فكانت الحبش في الازمنة القديمة تصيد هولاء القوم كما يصيد الناس الوحوش الضارية ولكن من جرى حروب الحبش مع القبائل المحيطة بهم ضعفت شوكتهم فكابدوا مشقات ومضرات كثيرة من جرى مهاجمات الغلاَّ وغاراتهم عليهم

وكانت هذه البلاد في الاجيال المتوسطة مقسومة الى عدة ولايات كل ولاية منها تحت سلطة شيخ او امير واستمرت على مثل ذلك الى ان صعد على سرير ملكها الملك ثيودورس الذي كان على جانب عظيم من الشجاعة والبطش فاخضعها جميعها لسلطتهِ المطلقة ولكنها عصتهُ اخيرًا لظلمهِ وشدة جورهِ على الاهالي لانهُ كان يحملهم احمالاً ثقيلة لا طاقة لهم على حملها . وكان الجهل قد اعمى بصيرتهُ وغير اطوارهُ حتى انهُ لم يعد يقدر العواقب وانتهى بهِ الحال الى انهُ قبض على جماعة من مرسلي الانكليز وغيرهم من سياح الافرنج والقاهم تحت الترسيم بدون ادنى جناية واستمروا في اسرهِ زمانًا طويلاً وقد خاطبتهُ الحكومة

الانكليزية مرارًا عديدة في اطلاق سبيل الأسرى المذكورين وهو يرفض ويمتنع حتى اضطرها الامر اخيرًا الى ارسال جيش لمحاربتهِ تحت قيادة اللورد نابير مولف من اثني عشر الف مقاتل منهم اربعة الاف من العساكر الانكليزية الاوربية وثمانية الاف من عساكرها الهندية فوافتهُ هذه الجيوش سنة ١٨٦٨ الى مدينة مجدلا وهي كرسي مملكتهِ فقاتلوهُ بقرب هذه المدينة وكسروا جيشهُ وفرقوهُ وخاف الملك ان يمسي اسيرًا فاخرج غدارة من حزامهِ واطلق الرصاص في فمهِ فوقع قتيلاً وهكذا انتهت حياتهُ . وبعد ان دخل الانكليز مجدلا امر اللورد نابير بدفن الملك فدفن باحتفال عظيم ثم اتى بابنهِ وكان عمرهُ نحو ثمان سنين فعاملهُ معاملة حسنة تليق بعيال الملوك واصحبهُ معهُ الى انكلترا وبهذه الواسطة تخلص القوم من اسر الحبش . ومن اراد ان يعرف اكثر عن تاريخ الحبش وعوائدهم فعليهِ بمطالعة تاريخ الحبش تاليف الخواجا ثيوفيلوس واد مير الالماني المطبوع في مطبعة المعارف في بيروت

الفصل الخامس

في بلاد المغرب

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد واخبار شعوبها الاقدمين

هذه البلاد يحدها شمالاً الاوقيانوس الاتلانتيكي وبحر الروم وشرقًا بلاد مصر وجنوبًا الصحراء وغربًا الاوقيانوس الاتلانتيكي . وهي تنقسم الآن الى اربع

ولايات اصلية . الاولى مراكش وقاعدتها مدينة مراكش ومن اشهر مدن هذه الولاية بعد مراكش فاس ومكناس ومقدور وطنجة وتطوان وسلا وتيمنا لالت ومكناسة . الثانية الجزائر ومن اشهر مدنها قسطنطينة ومسفرة وبونة او عنابة . الثالثة تونس وقاعدتها مدينة تونس ومن مدنها الاصلية بنزرتة والقيروان وقابس وهي ثانية القيروان وبها منارٌ مشهور . الرابعة طرابلس وهي تنقسم ايضاً الى ثلاثة اقسام الاول طرابلس وقاعدتهُ مدينة طرابلس ثم مزران وقاعدتهُ مرزوق ثم بلاد برقة وقاعدتها درنة ومن مدنها المشهورة اوجيلة وسبوة . ولكل قسمٍ من هذه الولايات الاربع ولاة وحكام منفردون بسياسة احكامها : اما اصحاب مراكش فهم اعظم واشهر من باقي ارباب الولايات ولذلك يطلق عليهم لقب سلطان لاستقلالهم وامتيازهم على غيرهم واما ولاة طرابلس وتونس فيقال لهم باي وهو عندهم من اعظم الالقاب بعد اسم السلطان واما صاحب الجزائر فكان يقال لهُ داي عند الافرنج . وعدد سكان بلاد المغرب نحو ٣٠ مليون نسمة واكثرهم على دين الاسلام وبينهم كثير من اليهود وقليل من النصاري

ويخترق هذه البلاد من الشرق الى الغرب سلسلة جبال اطلس وتقسمها الى قسمين متميزين فالارض الواقعة في الجهة الشمالية معتدلة الهواء ولاسيما الاراضي المروية بالمياه فانها في غاية الخصب واما الارض الواقعة تجاه الجنوب المساة بلاد الجريد فهي براري واسعة موحشة وليس بها الا سهول محرقة مشوبة بالملح عرضةً لحرارة الشمس تفرّ بها الرياح والوحوش وعلى الخصوص الجراد الذي ياتيها ويغطي اراضيها واما جبل اطلس فهو مرتفع وفاصل بين فاس ومراكش وفي جوانبهِ غابات كثيرة مملوة بالاشجار . وفي هذه البلاد جميع النباتات الموجودة في اوربا الجنوبية ولو كان اهلها يعتنون بها حق الاعتناء لزادت عن ذلك وفيها كثير من شجر النخل والزيتون والنارنج والموز والتين والتوت والبلوط والعنب وقصب الكسر وفيها انواع من الوحوش الضارية كالسباع

والضباع والافاعي المضرة والعقارب وغير ذلك من الاجناس وفيها كثير من الخيول الحسان والهجن المستظرفة ويقال ان بعض هذه الهجن يمكنه ان يقطع في يوم واحد ستة وثلاثين فرسخًا من الارض

ان معرفة الاقدمين كانت قليلة من جهة الاقاليم والاراضي الممتدة من مصر الى جنوب المحيط وبلاد البربر فكانوا يعبّرون عنها باسماء مختلفة ولم يكونوا يطلقون اسم افريقية الاَّ على بلاد مصر وما جاورها من الاقاليم لان معرفتهم كانت محصورة في الاراضي الشمالية المعروفة الآن بالبلاد المغربية ولذلك لم يطلقوا عليها اسم افريقية الاَّ في زمن الدولة القرطاجنية وأُطلق هذا الاسم اولاً على مملكة قرطاجنة فقط ثم اخذ يمتد يومًا بعد يوم حتى عمَّ جميع ممالك القارة وصار لقبًا لها

وقد اختلف المورخون والعلماء في اصل سكان هذه البلاد فزعم بعضهم ان اصل المغاربة من اسيا نزحوا من بلادهم في الازمنة القديمة وقصدوا بلاد افريقية وحلّوا في شماليها وابتنوا لهم فيها منازل ومساكن وقال آخرون هم من عرب اليمن وقيل من بني غسان وذهب بعضهم الى انهم اخلاط من بني كنعان وعمالق . وكان السبب في رحيلهم الى تلك البلاد غزوات بعض الملوك الذين افتتحوا بلادهم وثقلوا عليهم فانهزموا من امامهم وقصدوا الديار المصرية وعند وصولهم اليها منعتهم ملوكها عن النزول بجوارهم فرحلوا عنهم وانتشروا في ساحات البلاد المغربية فنزل بعضهم على السواحل البحرية ونزل البعض في الجهات الداخلية وسكنوا في تلك الاماكن واستوطنوها وشيدوا فيها القرى والمدن وتكونت منهم مع تمادي الزمان جملة قبائل وعشائر كصنهاجة ومغرا وزناتة وغيرهم من البطون والافخاذ . ومما يدل على ان اصلهم من بني كنعان وآل فينيقية بعض كتابات قديمة منقوشة على بعض الاثار القديمة باللغة الفينيقية منها هذه العبارة (نحن الذين انهزمنا من امام يشوع بن نون المغتصب) وهذا يقرب من العقل لانهُ عند رحيل بني اسرائيل من مصر وقدومهم الى

ارض كنعان وافتتاحهم تلك البلاد لا بد ان كثيرين من سكانها رحلوا منها واستوطنوا في تلك الجهات التي نحن بصددها وربما كان هناك بعض القبائل المتبربرة القديمة العهد فاختلطوا بعضٌ ببعض وتكونت منهم مع تمادي الازمان جملة عشائر وقبائل

وسميت بلادهم قديمًا بلاد البربر قيل لها ذلك حسب زعم بعضهم لخشونة اصوات اهلها وبربرة لسانهم غير المفهومة ولكن ليس ذلك فقط بل الارجح لكونهم في مبدا امرهم كانوا في غاية التوحش والتبربر حتى انهم على ما قيل كانوا يأكلون لحوم الحيوانات نيئة ويقتاتون من عشب الارض كباقي الوحوش وكانوا يرقدون على بساط الارض ايما حلوا . ولكنهم مع تداول الايام اخذوا ينتقلون من حالتهم الوحشية الى حالةٍ احسن واصلح وهكذا بانضمامهم ضمن مدائن وقرى خرجوا شيئًا فشيئًا عن حالتهم المتبربرة وبالتدريج ارتبطوا مع باقي الشعوب بروابط اسرعت تمدنهم على نوعٍ ما وعما قليل شيدوا المدن العظيمة وابتنوا لهم سفنًا وصاروا اصحاب سطوة واقتدار واستمرت البلاد تحت تسلطهم عدة قرون وكانت مدينة قرطاجنة من اعظم واشهر مدائنهم ولشهرتها وسطوتها قد افرزنا لها فصلاً مخصوصًا باخبارها ووقائعها

وما زالت البلاد في ايديهم وتحت تصرف احكامهم الى ان افتتحها الرومانيون بعد حروب ووقائع كثيرة قد ذكرنا اشهرها في اخبار قرطاجنة . وكان كلما تقدم الرومانيون في فتح البلاد ترحل القبائل من امامهم وتلتجي الى الجبال والاماكن الوعرة بحيث لا يقدر الرومانيون ان يتوصلوا اليهم وهي القبائل المعروفة الآن عند الافرنج بالنوميدية واما باقي السواحل كمراكش والجزائر وغيرها فكان يطلق عليها اسم موريتانيا وعلى سكانها اسم مور فخضعوا للرومانيين واختلطوا معهم واعتنقوا ديانتهم وسنة ١٧ للميلاد قام احد البرابرة المدعو تاكفراس واستمال قلوب الناس اليهِ وجعل يحرضهم على العصيان وتخليص البلاد من نير السلطة الرومانية فاجابهُ الى ذلك اكثر الاهالي

وحاربوا الرومانيين واستمرت الحروب بينهم نحو سبع سنين ولكنهم لم ينجحوا

وسنة ٤٢٧ للميلاد نشر بونيفاس الوالي الروماني علم العصيان ضد العاصمة وخرج عن طاعة دولتهِ وتعلقت اماله بالاستقلال على البلاد المغربية فارسل الى الفنداليين الذين كانوا بومئذٍ سكان الاندلس في اسبانيا يلتمس منهم المساعدة والامداد على بلوغ غايتهِ فاجابهُ ملكهم جنساريك الى ذلك وقصد افريقية بثمانين الف مقاتل وعند وصولهِ الى تلك السواحل اخذ يفتح المدن والاقاليم ويضيفها الى احكامهِ فلما رأى بونيفاس ان القوم الذين كان يامل مساعدتهم قد صاروا لهُ من جملة الاعداء والاخصام ندم على ما فعل واضطر ان يدافع عن نفسهِ خوفًا من الغلبة ولكنهُ بعد جملة وقائع انكسر وتفرق جيشهُ وتبدد واستولى الفنداليون على تلك البلاد واستمرت تحت قبضة ايديهم الى زمن الامبراطور جوستنيان حينما ارسل جيشًا عرمرمًا سنة ٥٣٥ للميلاد تحت رياسة القائد بليساريوس وافتتحها ومن ذلك الوقت انقرضت الامة الفندالية ولم يعد لها ذكر

الباب الثاني

في دخول المسلمين الى بلاد الغرب وافتتاحهم مدنها واقاليمها وباقي ولاياتها

اما قوة الدولة الرومانية بعد انقسامها الى سلطنتين شرقية وغربية فاخذت تضعف شيئًا فشيئًا بعد تلك السطوة والهيبة العظيمة اذ لا يخفى ان كل مملكة انقسمت على ذاتها لا تثبت ولا تدوم . وكان العرب يومئذٍ في نجاحٍ عظيم فانهم بعد ما فتحوا سورية ومصر وجهوا افكارهم نحو هذه البلاد فقصدها عمرو بن

العاص والي مصر بجيش جرار سنة ٦٤٤ ففتح بلاد النوبة وفتح برقة وما جاورها من الاقاليم وكان قد حدث في غيابهِ ثورة في الاسكندرية الزمهُ بالرجوع الى الديار المصرية لتمهيد القلاقل والفتن في تلك الاثناء توفي عمر بن الخطاب وتولى مسند الخلافة بعدهُ عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانهُ عبد الله بن سعد فزحف هذا الوالي الى بلاد المغرب وحارب القائد غريغوار رئيس جيش الروم فكسرهُ ومزق شمل عسكرهِ وفتح تونس وطرابلس وكثيرًا من المدن والبلدان ثم تقدم نحو قرطاجنة وارسل الى اهلها يقول لهم انهُ مستعد ان يتحول عنهم ويترك لهم باقي البلاد التي فتحها بشرط ان يدفعوا لهُ مليونين ونصفًا من الدنانير فاجابوا طلبهُ ودفعوا لهُ المال وهكذا انثنى راجعًا الى مصر تاركًا جميع فتوحاتهِ

فلما بلغ هذا الخبر حكومة القسطنطينية استعظمت ذلك المبلغ الذي دفعهُ رعاياها في الغرب للمسلمين فحقدت على عمالها واتهمتهم بالخيانة وصممت على الانتقام منهم وسنة ٦٦٣ للميلاد ارسل الامبراطور قسطنطس الثاني الى والي المغرب يطلب منهُ مبلغًا على قدر المبلغ الذي دفعهُ الاهالي للمسلمين فلم يجبهُ الوالي الى هذا الطلب واتحد سرًّا مع معاوية بن ابي سفيان راس الدولة الاموية على فتح البلاد واستخلاصها من ايدي الرومانيين وانهُ يكون مساعدًا لهُ في الباطن فاغتنم معاوية هذه الفرصة وارسل جيشًا تحت قيادة معاوية بن خديجة وعبد الله بن الزبير لفتح بلاد المغرب ففتحا نجاحًا عظيمًا وكسرا الجيوش الرومانية . وسنة ٦٦٦ ارسل جيشًا اخر لنجدة الجيش الاول ثم ارسل في سنة ٦٧٠ نجدة اخرى تحت راية الامير عقبة بن نافع ففتح هذا الامير كل البلاد الشمالية من الشرق الى الغرب الاقصى وافتتح كل بلدة مسكونة في تلك الجهة ومهد باقي الاقطار وسنة ٦٧٥ بنى في حرش غاص بالوحوش الكاسرة مدينة القيروان فصارت من ذلك الوقت مقرًّا ومركزًا لولاة الاسلام على البلاد المغربية واضحت دارًا للعلوم ومقصدًا للطلاب

وفي اواخر القرن السابع نهض جمهورٌ غفير من البربر وانضم بعضهم الى بعض طمعًا بالاستقلال واسترجاع ملكهم فخلعوا طاعة المسلمين وجاهروهم بالعصيان وكانت تقودهم امراة موصوفة بالشجاعة والاقدام يقال لها دمية فكسرت جيش المسلمين في جملة مواقع وطردتهم من جميع البلاد فالتجأوا الى بلاد برقة وبقوا هناك الى ان وافتهم نجدة قوية فحملوا بها وصدموا جنود دمية المذكورة فانتصروا عليها وكسروها واسترجعوا البلاد التي كانت قد اخذت منهم

ثم في سنة ٧٤٦ للميلاد حدثت قلاقل اخرى في افريقية وكان سببها ابو سعدى البقري خليفة سيد قبيلة زناتة فانهُ اخذ يحرض اهالي المغرب على حرب العرب املاً بتاسيس سلطنة مستقلة في تلك البلاد ولكنهُ لم ينجح في مشروعهِ واستمرت البلاد بايدي العرب زمنًا طويلاً الى ان سقطت سلطنة الخلافة في الغرب والشرق فكانت الولاة على نوعٍ من الاستقلال ولم يكن للخلفاء من احكام الغرب يومئذٍ الاَّ مجرد الاسم فقط وهكذا كان الحال ايضًا في زمن الخلفاء الفاطميين فانهُ تداول احكام هذه البلاد في ايامهم كثير من الولاة والاحكام مما لا يسعنا ضيق المقام استيفاء اخبارهم

هذا وفي زمن ولاية المعز بن باديس عليها زحف اليها عرب بني هلال من بلاد نجد سنة ١٠٥١ بجموع كالجراد المنتشر تحت راية اميرهم حسن بن سرحان وقائدي جيوشهم ذياب بن غانم وسلامة بن رزق المشهور بابي زيد وكان من اعظم فرسانهم فاجتازوا النيل ونزلوا بلاد برقة فافتتحوا امصارها واستباحوا املاكها وتقارعوا على ولاياتها ثم تقدموا بجموعهم لافتتاح باقي البلاد فاستعد المعز المذكور لمصادمتهم ومقارعتهم ونهض بجموع صنهاجة وزناتة مع جمهور غفير من طوائف العرب المتوطنة في تلك البلاد ولما التقى الفريقان افترقت جموع العرب عن الجيوش الاسلامية والطوائف المغربية واتحدت مع الهلاليين نظرًا للعصبية القديمة وكانت الدائرة على المعز فانهزم شر هزيمة وفرَّ

بنفسهِ واهل بيتهِ وقصد الشطوط البحرية والتجا هناك ونهبت العرب اموالهُ وذخائرهُ وقتلوا من جيشهِ عدداً كثيراً

ولما انهزم المعز من امام وجه العرب جهز صاحب تلمسان جيشاً عرمرماً لقتالهم فكانت بينهم وبينهُ حروب كثيرة الى ان انتصروا عليهِ وقتلوهُ بنواحي الزاب وهي مقاطعة مشهورة في تلك الاطراف ثم تغلبوا على باقي الضواحي وازعجوا سكانها وانعطفوا على المنازل والمدن والقرى فنهبوها وتركوها قاعاً صفصفاً وزاحموا الاهالي في بلادهم واقتسموا بينهم الولايات والايالات من تونس الى فاس ومكناس في مراكش وباقي بلاد الصحراء وبرقة واستمرت الرياسة في ايديهم زمناً طويلاً

هذا وبينما كانت هذه القلاقل والبلابل جارية في المغرب ظهر في اوائل القرن السادس عشر شابٌّ يقال لهُ خير الدين وهو المعروف عند الافرنج باسم بربوس وكان هذا الشاب ابن رجل فاخوري من جزيرة متليني المسماة عند الاتراك مِدِلّي فنشا على حرفة القرصان من صغرهِ وكان قد شارك اخاهُ اروج في هذا العمل فاغتنيا مع تمادي الايام من اموال النهب والسلب حتى صار لهما في وقتٍ قريب عمارة بحرية وكانا قد صمما ان يتخذا لها مركزاً على بعض شطوط افريقية نظراً لحسن موانيها . وكان يومئذٍ ملك الجزائر يقال لهُ سالم بن تومي فاجتمع باروج المذكور وتفاوض معهُ بهذا الشان فاجابهُ الى طلبهِ . وكان للاسبانيول حصن عظيم في تلك النواحي حاول ملك الجزائر مراراً عديدة على افتتاحهِ فلم يتمكن من ذلك فطلب من اروج المساعدة والامداد على افتتاح هذا الحصن فاجابهُ الى ذلك ولكنهُ عوض ان يساعدهُ اخذ يستميل اليهِ قلوب الاهالي والاعيان وفي ايام قليلة اشتهر امرهُ وصار ذا كلمة نافذة فاستولى على الجزائر وقتل ملكها ثم افتتح تلمسان وامتدت احكامهُ الى اواسط افريقية وكانت عمارتهُ البحرية قد اقلقت سواحل اسبانيا وايطاليا في مغازيها فقام عليهِ في غضون ذلك كوماريس حاكم اوران بجيش عظيم وانتصر عليهِ في عدة مواقع

واخيرًا حصرهُ في تلمسان وقتلهُ

فاستولى على المملكة بعده اخوهُ خير الدين المشهور باسم بربروس واخذ بثار اخيهِ ثم رتب احوال المملكة ونظم امورها واذ كان يخاف من هجمات الاسبانيولين وغاراتهم على بلادهِ استعان بالسلطان سليمان الثاني ودخل تحت ظل حمايتهِ فامدهُ بالجيوش العثمانية . ثم سلمهُ رياسة العمارة البحرية وجعلهُ قبطان باشي على مراكبهِ الحربية وكان بربروس قد اضمر ان يفتح جميع بلاد المغرب ويقدمها خدمةً للسلطان في مقابلة جيلهِ وعند ما شرع في هذا الامر اضطربت اشراف ايطاليا من سطوتهِ واتحدوا مع شرلكان امبراطور اسبانيا على حربهِ فحاربهُ شرلكان وقهرهُ وبدد جيشهُ وسلم زمام البلاد لملوكها الاصليين

وسنة ١٥٧٤ للميلاد جهز السلطان سليم الاول جيشًا عرمرًا وارسلهُ مع عمارة بحرية تحت قيادة سنان باشا لافتتاح تونس وباقي بلاد المغرب فافتتحها من الاسبانيولين ثانيةً بعد حروب ووقائع هائلة ومن ذلك اليوم صارت جميع البلاد ما عدا مملكة مراكش خاضعة للدولة العثمانية . وكانت الجزائر قد استقلت نوعًا سنة ١٥٨٥ واستمرت كذلك الى سنة ١٨٣٠ حين حاربتها دولة فرانسا بسبب تعدي اهلها على السفن الفرنساوية وعلى حقوق سفنها ورعاياها المقيمين فيها فافتتحت في اول الامر جانبًا منها وكان اعظم مقاوميها في هذه الحروب الشيخ محيي الدين الحسني الذي طلب منهُ اهالي الجزائر جملة مرار ان يملك عليهم وكان يابى الملك تزهدًا فعند ما ضايقهم الفرنساويون قصدوا اجبارهُ على ان يتسلطن عليهم اما هو فبقي مصرًّا على عدم قبولهِ فتهددوهُ بالقتل ان لم يقبل فما قبل بل اعطاهم ابنهُ عبد القادر واشار عليهم ان يجعلوهُ سلطانهم فبايعوا عبد القادر المذكور في الملك وهو من مشاهير هذا العصر في الشجاعة وعلو الهمة فقاوم الفرنساويين اشد مقاومة وكانت بينهُ وبينهم مواقع وحروب كلية لا يسعنا ضيق المقام التعرض لذكرها ثم سلم اخيرًا في ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٤٧ للميلاد بعد ان حاربهم مدة ست عشرة سنة . ثم ارسلوهُ الى فرانسا وبقي هناك

الى سنة ١٨٥٢ حين اعتقهُ نابوليون الثالث من الاعتقال وعين لهُ مرتبًا سنويًا يدفع اليهِ من خزينة الدولة فاتى وسكن دمشق ولم يزل قاطنًا بها الى ان توفاهُ الله

واما بلاد تونس فكانت كالديار المصرية على نوع من الاستقلال تحت مال معلوم تدفعهُ سنويًا الى الدولة العثمانية الى ان كانت سنة ١٨٨١ ادخلتها فرانسا تحت حمايتها واشهرت سيادتها عليها عنوةً واقتدارًا غير انها ابقت سياستها في ايدي اهاليها ووليها الحالي يقال لهُ سيدي علي باشا اخا محمد صادق باشا الوالي السابق ويلقب بالباي وهو مشهور بحسن الادارة وعلو الهمة

وعدد اهالي هذه البلاد يبلغ ٢ ١٠٠ ٠٠٠ نسمة وعاصمتها مدينة تونس عدد سكانها ١٢٥ الفًا اكثرهم مسلمون وليس لهذه البلاد شهرة عظيمة في التجارة واكثر واردانها الاقمشة الانكليزية وقد بلغت قيمتها سنة ١٨٨٢ نحو ٤٤ مليون قرشًا واما صادراتها فنحو ١٩ مليونًا تنحصر في بعض اصناف من محصولاتها كزيت الزيتون والاسفنج والملح والبقول والسمك المملح والصوف والطربوش

اما البلاد الوحيدة التي حفظت استقلاليتها من سنة ١٥٥٩ الى هذه الايام فهي مراكش وهي من اشهر واعظم الاقسام المقدم ذكرها واستقلالها استقلال حقيقي دون غيرها من ممالك بلاد المغرب وسلطانها الحالي يقال لهُ السيد محمد بن عبد الرحمن وهو من افاضل الناس موصوف بالوداعة والمزايا الحميدة

الفصل السادس

في جزيرة مداكسكر

لا يخفى ان في قارة افريقيه عدة جزائر متفرقة منها واقعة على شرقيها ومنها على غربيها اما الجزائر الواقعة على الجهة الشرقية فمنها جزائر كومورو وسكانها نحو ٣٠ الف نسمة اكثرهم من العرب والمسلمين. وجزيرة بوربون التابعة احكام فرانسا وعدد اهلها ٦٥ الف نفس وجزيرة موريتوس وملحقاتها التي هي تحت تسلط الانكليز وجزيرة سومطرا او غيرها. واما الجزائر الواقعة على غربي القارة فمنها جزيرة مدايرا وجزر الراس الاخضر وهذه جميعها تحت حكم البرتوغال. ثم جزيرة القديسة هيلانة التي بيد الانكليز وجزائر كناري او الخالدات المختصة باسبانيا وغيرها ولكن اذ كانت جزيرة مداكسكر اعظمها جميعها في الاتساع وعدد الاهالي راينا ان نذكر شيئاً عنها قبل الانتقال من هذه القارة

ان جزيرة مداكسكر واقعة في بحر الهند للجهة الجنوبية الشرقية من قارة افريقية وتحسب قسماً لقربها اليها مع انه يفصلها عنها خليج موزاميك الذي مضيق عرضهِ ٢٠٠ ميل. ومساحة هذه الجزيرة فسيحة فان طولها من الشمال الى الجنوب ٩٥٠ ميلاً ومعدل عرضها ٢٥٠ ميلاً على انه في بعض الاماكن يبلغ ٣٥ ميلاً فعلى ذلك تعادل مساحتها مساحة مملكة فرانسا تقريباً

اما عدد سكانها على ما ذكرهُ الجغرافيون فخمسة ملايين وهم شعوب وقبائل مختلفة متفرقون بين جبالها وسهولها وديانهم وثنية اذ لم يوجد بينهم من يهديهم ويرشدهم لمعرفة الخالق. واما الآن فقد دخلت الديانة المسيحية الى هذه الجزيرة دخولاً عجيباً بواسطة مرسلين انكليز ولاتينيين وغيرهم واخذت تعاليم الانجيل

تنتشر بينهم وتمتد حتى ان عدد المسيحيين الان يبلغ نحو ٢٠٠ الف نفس من جملتهم الملكة الحالية ووزراؤها وذوو الرتب والمناصب . وهذا التغيير العجيب تم في مدة خمسين سنة فقط . والمامول انهُ في وقتٍ قريب تلاشى الديانة الوثنية من هذه الجزيرة وتنتشر معرفة الخلاص بين جميع شعوبها

اما هواء هذه الجزيرة فعلى الاغلب حارٌّ وفي بعض الاماكن تشتد الحرارة الى درجة غير محتملة بحيث تكون قتالة للاوربيين القادمين من بلادٍ باردة واما فصولها فتختلف عن باقي الفصول المالوفة للناس اذ لايكون فيها سوى فصلين فقط وهما الشتاء والصيف

فصيفها يبتدئُ من شهر تشرين الثاني وينتهي في نيسان والشتاء من ايار الى نهاية تشرين الاول . واما تربتها فجيدة الى الدرجة القصوى وتاتي بنتائج عظيمة اخصها الارز وهو المعول عليهِ في ماكولات الاهالي ويرسل منهُ جانب الى الخارج برسم التجارة ولو كان لاهلها زيادة خبرة ومعرفة في امر الزراعة لكانت البلاد في نجاح اكثر مما هي عليهِ الان . ومن مستغربات اشجار هذه الجزيرة شجرة يقال لها شجرة السياح وهي اشبه بشجرة الموز ومن خواصها انهُ يوجد في اسفل كل غصن منها ورقة ملتفة على شكل الكيس تنبعا فيها مياه المطر فيستعين بها المسافرون في اسفارهم . قال بعض السياح كنت مسافرًا ذات يوم في مداكسكر فوصلت الى غابة متسعة فيها كثيرٌ من هذه الاشجار واذ كنت عطشانًا اخذ احد غلماني رمحًا وطعن بهِ غصن شجرة منها فخرج ماء عذب بارد مقدار ١٥٠ درهمًا فشربت وارويت ظمأي وسرت شاكرًا

وفي هذه الجزيرة بعض المعادن كالنحاس والحديد والرصاص والقصدير والزئبق وغير ذلك ولكن لم يستخرج منها الى الان غير الحديد فقط . وبها انهر عديدة وجبال شامخة ارتفاع بعضها نحو ٩٠٠٠ ذراع . ومن اعظم مدنها مدينة انتاناناريفو وهي عاصمة المملكة ومفرکرسي الحكومة . وعدد سكانها نحو ٨٠ الف نسمة . ومدينة تاماتاف وهي اسكلة بحرية كثيرة التجارة واهلها نحو ٢٠٠٠ نفس

اما شعوب هذه الجزيرة فينقسمون الى قسمين كبيرين . الاول يقال لهم شعوب السقلوان وهم يشبهون العبيد في اللون والعوائد يسكنون غربي جبال الجزيرة . والثاني شعوب الماليكاز او الماليار ومنها قبيلة الهوار التي سادت على باقي قبائل الجزيرة سطوةً وشوكةً والتي منها العائلة الملكية الحاضرة . ولذلك يطلق على حكومة مداكسكر حكومة الماليكاز وعلى شعبها شعب الماليكاز . والمظنون ان هذا الجنس خرج في الاصل من شبه جزيرة ملقا او ملايا في الهند الشرقية وانتشروا في عدة اماكن اخصها جزائر المحيط فان اغلب الاهالي منهم . ويمتاز هذا الجنس بشدة اسمرار البشرة وبطول الشعر وتدليهِ وسوادهِ وبضخامة الانف وتفرطحهِ وبكبر الاعين ولمعانها

اما عوائد اهالي مداكسكر فقبيحة ويكفينا ان نقول انهم عبدة اصنام فليستنتج القارئُ ما وراء ذلك من الصفات . ومن عوائدهم الوحشية عملية احتيالية يسمونها طنجينا اي عملية كشف السحر استعملوها في القضايا الواقع فيها الشبهة على بعض الناس من جهة كونهم يستعملون السحر او لهم مداخلة في فتنة سياسية او ميل نحو النصرانية . وكان اعتقاد العامة في صدق هذه العملية بهذا المقدار قويًّا حتى ان الابرياء المتهومين في الشكايات المذكورة فضلاً عن كونهم يخضعون ويسلمون بصحة تلك العملية كانوا يطلبون ان تجرى عليهم برغبةٍ شديدة لتبرير انفسهم امام الشعب مع ان الاكثرين منهم كانوا يموتون من مخاطرها وتموت براءتهم معهم . اما كيفية تلك العملية فانهم كانوا ياتون بالشخص المتهم امام رئيس الطنجينا (ويقال لهُ اللاعن) فيضع في فمهِ ثلاث قطع من جلد دجاجة ليبلعها بدون مضغ ثم يطعمهُ قليلاً من الارز المفلفل وبعد ذلك ياتي بجوزةٍ من السم فيفحت منها قليلاً في عصير موزة ويسقيها للمتهم ثم يضع يدهُ على راسهِ ويبتدئ بهذه الصلاة قائلاً اسمعي اسمعي اسمعي واصغي جيدًا يا ايتها الرايانامانكو[1] امتِ بيضة مستديرة من عمل الله انتِ التي تنظرين وليس لكِ

(١) اي المنتشة او الفاحصة

اعين انتِ التي تسمعين وليس لكِ اذان انتِ التي تجيبين وليس لكِ فم اسمعي اذًا واصغي جيدًا يا اينها الرايانامانكو . ثم يطيل الكلام في تلك الصلاة التي لم تقف الاَّ على ما ذكرناهُ منها وغاية قصدهم بهذه الاستغاثة للنجينا ان تخص احوال المتهم وتظهر ذنبهُ فان كان بريًّا تجعلهُ يستفرغ ما ابتلعهُ من جلد الدجاجة صحيحًا كما كان ولكن اذا كانت المعدة قد هضمتها ولم يخرج القيء شيئًا منها يحسبون ذلك دليلاً واضحًا على ذنب المتهم فيبتدئون حينئذٍ بضربهِ ضربًا اليمًا حتى يموت ثم يدفنونهُ في حالة الذل والاهانة وفوق كل ذلك يضبطون جميع املاكهِ ويغرمون اقاربهُ . وكان عدد الذين يموتون بهذه الميتة الشنيعة ثلاثة الاف شخص كل سنة ولكن هذه العادة قد بطلت الآن بواسطة دخول الديانة المسيحية

اما تاريخ هذه الجزيرة فمجهول ولا يعلم كيف او اي متى سكنها الناس ومع انهُ كان للعرب والمغاربة صلة قديمة معها في التجارة لم يسمع عنها شيء الاَّ في الجيل الثالث عشر من ماركوبولو الفنيسياني الذي اشتهر في سياحتهِ الطويلة في اسيا وافريقية فانهُ يسميها ماغاستر مع انهُ لم يدخلها . واول من زار هذه البلاد لورنس الميدا حكمدار بورتوغار في الهند فانهُ مرَّ عليها وهو متوجهٌ الى محل ماموريتهِ سنة ١٦٠٥ . وقد حاول البورتوغاليون مرارًا عديدة اخضاع هذه الجزيرة وامتلاكها فاستولوا على بعض سواحلها ولكنهم اخيرًا طُرِدوا منها

وكان الفرنساويون قد اجتهدوا ان يضموها الى املاكهم في افريقية واستعملوا جملة وسائط الى ذلك فلم تجدهم نفعًا لانهم حصلوا على مقاومات شديدة من الاهالي ومن الانكليز ايضًا الذين مع انهم جيران في اوربا لم يسروا بقربهم في افريقية واسيا . ففي سنة ١٦٤ قدم الى تلك الجزيرة جماعة من الفرنساويين واستوطنوا في بعض اطرافها . وسنة ١٧٧٤ ارسلت فرانسا الكونت بنياوسكي ليقيم هناك بعض مراكز حربية فذهب في جيشٍ عديد وعند وصولهِ الى تلك

الجهات اظهر العصاوة على الحكومة طمعًا بالاستقلال فبعثت دولة فرانسا فحاربته وقتلته . وسنة ١٨١٥ تملك الفرنساويون بعض مراكز على الشواطي البحرية لكنهم التزموا اخيرًا ان يتركوها بسبب قيام الاهالي عليهم . وفي اثناء ذلك وقع الاتفاق بين دولتي انكلترا وفرانسا ان تعتزلا كلتاهما عن استملاك شيء من اراضي الجزيرة وان يتركاها لاهلها

وسنة ١٨٥٥ استحصل رجلٌ فرنساوي يدعى لامبر رخصةً من الملكة رانافالونا الاولى لاقامة معمل للسكر شراكةً بينهُ وبينها . فبسبب هذه الشراكة صار لهُ وسيلة للتردد على العاصمة والتعرُّف بوزراء الحكومة . ثم اتصل بعد ذلك بمعرفة الامير راكوتو وليّ العهد فكان يشرح لهُ عن التجارة ووسائط الغنى الناتجين من اصلاح الزراعة وتحسين احوال البلاد فاتفقا ذات يوم سرًّا على اقامة شراكة لاجل هذه الغاية ووعد الامير راكوتو بانهُ عند جلوسهِ على سرير الملك يعطي لامبر اراضي كثيرة للزرع وحفر المعادن وغير ذلك من الامتيازات التي من شانها ان تجلب المكاسب وتصلح امور البلاد . فلما تولى الامير راكوتو زمام المملكة لُقّب رادامـا الثاني والتصق بهِ جملة من الاجانب واحاط بهِ اصحابهُ الاقدمون ممن كانت تحلو لهُ عشرتهم فانعكف على الملاهي واللذات واهمل عهودهُ مع لامبر فكان يطالبهُ ويلازمهُ ويشدد عليهِ في ذلك حتى التزم اخيرًا ان يجري ما وقع عليهِ الاتفاق فاصدر اوامرهُ باعطاء لامبر قسمًا كبيرًا من الاراضي واذن لهُ باستخراج المعادن وضرب النقود وعمل الطرقات والترع وغير ذلك من الامور التي اجراها على غير رضى وزرائهِ واركان دولتهِ

وفي السنة الثانية من حكمهِ حدثت ثورة في البلاد قتل بها هذا الملك وخلفتهُ الملكة رازوهرينا وعند جلوسها توقفت الحكومة عن اجراء اوامر الملك السابق واعلنت للفرنساويين بانها لا تقبل ولا تسلم بتلك الموافقة السرية التي جرت بغير معرفة روسائها فتشكى الفرنساويون من تلك المعاملة واقاموا الحجة على حكومة مداكسكر وولجت فرانسا الكومودور دوبري ان يقصد

الجزيرة ويسعى في تحصيل مطاليب رعاياها فذهب اليها بثلاث قطع حربية واخذ يهدد الحكومة ولكنهُ لم يستطع ان يجري بالفعل تلك التهديدات نظرًا لما يعهدهُ من الموافقة الواقعة بين فرانسا وانكلترا من جهة اعتزالها عن المداخلة والاغتصاب . ولكن اذ كان لابد من صرف القضية على وجهٍ من الوجوه ارسلت حكومة مداكسكر سفراء الى فرانسا وانكلترا في اواخر سنة ١٨٦٣ وهناك انتضت هذه المسئلة بالزام الحكومة ان تدفع للفرنساويين مليون فرنك مقابلة لاسقاط دعواهم

ثم خلف هذه الملكة المذكورة الملكة رانا فالونا الثانية في اول نيسان سنة ١٨٦٨ وتزوجت في ٢ ايلول من السنة المذكورة وتزوجت بالصدر الاعظم في ١٩ شباط سنة ١٨٦٩ وتعمدت مع زوجها في ٢١ الشهر المذكور من قسيس وطني انجيلي يسمى اندريا مبيلو وفي تلك السنة امرت الحكومة باتلاف الاصنام وهياكلها من اقليم ايميرينا الذي هو اعظم اقليم في تلك البلاد ومقر اقامة الحكومة